NICOLA A. ZIADEH
American University of Beirut
Beirut, Lebanon

من الزاوية العربية

نبيه أمين فارس

دار بيروت
للطباعة والنشر

A
956.904
F222m
c.2

A
956.904
F222m
c.2

الى من يقولا
مع المودة
نبيه
١٩٥٤/٥/٥

مِنَ الزاوِيَةِ العَرَبِيَّةِ

نبيه أمين فارس

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٣

L158_1396

الطبعة الاولى
اول نوار ١٩٥٣

مقدّمة

من الظواهر التى استرعت انتباهي في السنوات الاخيرة ان القضايا العربية التي تتطلب حلولاً عربية تبحث في اكثر الاحيان من هذه الزاوية او تلك ما عدا الزاوية العربية . اما انا فقد حاولت في هذه الدراسات الثلاث وفي الكلمتين الاخيرتين ان اعالج بعض هذه القضايا الملحة من الزاوية العربية ، مع علمي بان العرب جزء من انسانية كبرى مرتبط مصيرهم بمصيرها . على الرغم من ذلك هنالك ، او يجب ان يكون هنالك ، حلول عربية للقضايا العربية إذا أراد العرب حقاً ان يسمع لهم صوت ويقام لهم وزن في الصعيد الدولي . وأنا ادفع بهذه الدراسات الى القارىء العربي راجياً ان اكون قد أديت بذلك بعض الخدمة لتوضيح هذه القضايا والاشارة الى بعض الحلول .

نبيه امين فارس

العرب في النصف الثاني من القرن العشرين

●

كان النصف الاول المنصرم من هذا القرن سخياً جداً بالنسبة إلى العرب ، او قل سخياً اكثر مما يستحقون إذا مـــا نظرنا الى جهادهم القومي طوال هذه الفترة من الزمن . وإذا كانوا قد قاسوا بعض الويلات فان النعم التي انعمت عليهم لأكثر وأعظم . فما من محنةٍ حلت بهم إلا وكان في طيها منحة ، وما عبس في وجههم يوم إلا وابتسم لهم آخر ، إلى أن فاجأهم الدهر ببسمةٍ أيما بسمة فنالوا استقلالهم السياسي في أكثر اقطارهم على أهون سبب، وعلى حساب حرب عالمية أنهكت العالم باسره تقريباً إلا هم، وواكبتهم ظروف اخرى مؤاتية لا تأتي في حياة الشعوب إلا مرة في الف سنة .

واليوم يقف العرب على عتبة النصف الثاني من هذا القرن وقفة الحذر والحيرة والارتباك. فالنعم التي أُسبغت عليهم في أثناء السنين الخمسين الغابرة مهددة بالزوال وبسمة الدهر التي حملت اليهم الاستقلال تكاد أن تتلاشى . فقد مني العرب في العقد الأخير من السنين بالفشل تلو الفشل ، ومزقت الحوادث حجاب القوة الوهمية الذي نسجوا لحمته من اسطورة الخمسين مليون عربي وسداه من اسطورة الرأي

العام الاسلامي ، فبدا ضعفهم واضحاً بعد ان كان خفياً عن أعين الناس، فاستنسرت الزرازير واستأسدت الثعالب، وأضحى الكيان العربي نفسه معرضاً للتداعي والزوال . فالدول العربيـــة لأعجز من أن تدافع عن نفسها ضد أي طاريءٍ عسكري أو سياسي ما دامت ممزقة كما هي الحال . وقد جاء اجتماع الجامعة العربية الاخير دليلًا صادقاً على عدم وجود التفاهم والاتفاق بين دولها إلا في مسألة واحدة وهي اتفاقها على الاختلاف . وستنهار هـــذه الدول كلها وتتساقط كأوراق الخريف عند هبوب اول ريح دولية تعصف بالتوازن القلق القـائم اليوم في الشرق العربي . ولن يقوى العرب على الاحتفاظ بكيانهم واستقلالهم في النصف الثاني من هذا القرن إلا إذا سلكوا طريق التكتل والاتحاد . وقد سبق لي أن بيّنت قبل أن اكفهرت سماء العرب بالغيوم في خطاب القيته في تموز من عام ١٩٤٦ ان العرب يقفون على مفترق الطريق ، يعرجون بين التفتت والتكتل ، بين الاقليمية والاتحاد ، وان طريق الاقليمية تؤدي الى بلقان عربي، بينما تنتهي طريق الاتحاد الى ولايات متحدة عربية على مثال الولايات المتحدة الاميركية،أو ، على الأقل ، إلى جماعة الدول العربية على غرار جماعة الدول البريطانية،وهي ما تعرف بالكومنوالث . وإذا كان منطق الحوادث والأحوال الدوليـــة الذي يدفع بالعرب الى سلوك طريق التكتل ملحاً في عام ١٩٤٦، فهو الآن أشد إلحاحاً . فقد كان العرب آنذاك يُصفّون علاقاتهم بالانتداب بعد أن رفع كابوسه ، ويحاولون ان يتلافوا استمراره في شكل معاهدات مفروضة . أما اليوم فهم يجابهون عـلاوة على

هذا الخطر الملموس ، خطر الشيوعية وخطر التوسع الاسرائيلي ، وهذا الخطر الأخير ، الجاثم في قلب البـلاد يفصل بين العرب في الهلال الخصيب والعرب في وادي النيل ويقطع الطريق التجارية في البحر المتوسط عن النهضة الصناعية التي تتفتح براعمها في مختلف الأقطار العربية ــ هذه البلدان التي تقف الآن عـــلى عتبة حياة اقتصادية جديدة. والبحر المتوسط كان بحر العرب بقدر ما كان بحر الروم ، ويجب ان يعود كذلك إذا كان للتجارة العربية ان تزدهر وتعيش . وقد يصبح بحراً اسرائيلياً إذا لم يتلاف العربُ ذلك .

ولو اقتصرت الحال على هذه الاخطار الثلاثة لهان الأمر . غير ان الخطر الأعظم هو غير هذه الاخطار على الرغم من انه مرتبطٌ بها رباطاً وثيقاً . فالعربُ اليوم ، بحكم مركز بلادهم الجغرافي ، بين حجري رحى يكادان ان يُطبقـــا عليهم ؛ وبلادُهم ، أرادوا ذلك او لم يريدوا ، تكوّن الحـد الفاصـل بين دول القوى البرية التي تسيطر عليها الروسيا ودولِ القوى البحرية التي تسيطر عليهـا الولايات المتحدة الاميركية . وقد يستحيـل هذا الحد الفاصل ، من دون ان يكون للعرب في ذلك قولٌ أو رأي ، إلى مركـز دفاعي يوطد فيه هذا الفريق او ذلك دفـاعه ضد الآخر ، ومركز هجومي يشن منه هذا الفريق أو ذاك هجومه على الآخر .

ليست هذه الاخطار بخافيةٍ على أولي الأمر . وقـد كثر في الآونة الاخيرة الكلام فيها في العواصم العربية ، وليست هي بخافية على الشعب ، وقد خصصت لها الصحافة قسماً وافراً من أعمدتها ،

ويكاد الاجماع على فداحتها ان يكون تاماً ، اما الاجماع على الطرق التي يجب ان تتبع لتلافي هذه الاخطار أو لمجابهتها إذا ما داهمت فلا وجود له . ولا يتعدى التفكيرُ العربي الرسمي في هذا الصدد الاقليمية الضيقة التي لا يتجاوز افقها السياسي حدود السيادة الوطنية مع ان « السيادة الوطنية ضربٌ من التدجيل والضحك على النفس إذا لم ترتكز الى دعامةٍ اسمها السلامة الوطنية ». وأفدح من ذلك تدجيلاً وضحكا على النفس ان يظن العرب ان في استطاعة اية دولة من الدول العربية في الوقت الحاضر ان تأمن لنفسها السلامة الوطنية في وجه التوسع الاسرائيلي ، مثلاً ، منفردة . فالعالم العربي اليوم على مفترق الطريق بين الاتحاد القائم على الاسس الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والذي يؤدي حتما الى الحياة والقوة والسيادة والسلامة ، وبين الاقليمية التي تنتهي حتما الى الضعف والفناء .

فمن الضروري إذن ان نبحث موضوع الاتحاد من اساسه ونعين عوامله المؤاتية وهي عوامل التوحيد ، وعوامل المقاومة ، وهي عوامل التفريق . ولن اتعرض في هذا المقام الى أيٍ من الاقتراحات والمشاريع الاتحادية التي قُدمت الى الجامعة العربية في دورتها الاخيرة بل أحاول ان أُعدّد هذه العوامل ، الموحدة منها والمفرقة ، وأصفها بايجاز حتى يستطيع العرب ان يختاروا لأنفسهم الهدف على اساس العلم والعقل والمصلحة العامة . ولن اتخذ اليوم صفة الداعي مع انني أؤمن عن علم ان كل تكتلٍ ثنائياً كان ام

ثلاثياً أم شاملاً هو في صالح العرب وصالح قضيتهم .

فلنبدأ بعوامل التوحيد في العالم العربي . فالفعالة منها اليوم خمسة وهي : اللغة والتاريخ والدين والعقلية ووطأة العوامل الجديدة — الداخلية منها والخارجية .

اللغة : ما هي اللغة ؟ أهي سلسلة ينطق بها الانسان للتعبير عن حاجاته ، أم هي وسيلة لبيان المعاني واحكامها واحياناً لابهامها واشكالها ، أم هي خزانة لتراث الشعب وثقافته ، أم ديوان لأشعاره وآدابه ، أم مرآة لأمانيه وآماله ، أم سجل لا يمحى ولا يزول لمدنيته وآثاره ، أم مفتاح لأفكاره واعماله قبل التاريخ ؟ هي هذه كلها وأكثر . هي جزء من كيان الشعب الروحي . هي رمز وحدته الروحية وركنها الأعظم .

كانت هذه اللغة ولا تزال اعظم العوامل الفعالة في توحيد العرب وأبعدها أثراً في جمع شملهم . وهي العامل المشترك بين جميع الاقطار العربية على اختلاف اللهجات . يفهم العربي في الجزيرة والبادية والعراق وسورية ولبنان وفلسطين والاردن واليمن ومصر وبرقة وليبيا والقسم الحضري من المغرب الأقصى تعابيرها ويطرب لشعرها وأمثالها وجوامع كلمها ويناجي ربه بها ويتغزل بحبيبه بها ويشتم اعداءه بها ويقسم ايمانه بها ويحلم أحلامه بها . هي أوّل ما يسمع عندما يدخل هذه الحياة ويوضع مقمطاً في مهده ، وآخر ما يتلى فوق جثمانه عندما يمدّد مكفناً

في لحده . بها هَدَمْتُ حواجز الحـــذر ورفعتُ حجب الشك التي اعترضتني في وهرانَ والجزائر ، وبها تمكنت من ان أتسرب الى قلوب الاخوان في الخرطـوم وام درمان وأنعم بصداقتهم في لحظة عين . بها أكشف للعراقي عن آمالي وآلامي ، وبهـا يشرح لي أمانيه ومآسيه . ومهما يختلف العربي عن اخيه العربي من حيث المستوى الاجتماعي والثقافي ومن حيث البيئة الجغرافية والدينية ، يترنح طرباً ، لا بل نشوة ، لتلاوة القرآن أو انشاد الاشـعار او استعمال جوامع الكلم او الامثال .

هذه الرابطة الحية آخذةٌ بالنمو من يوم إلى يوم لازدياد عـدد المدارس وانتشار الجرائد والمجـلات ولغزو الراديو معظم مرافق الحياة العربية ولنمو شبكة المواصلات بين الأقطار العربية بعضها مع بعض من جهة وبين أطراف القطر الواحد من جهـة اخرى . فالاتجاه الآن هو نحو لغة واحـــدة مبسطة موحَدة (بفتح الحاء المهملة) موحِدة (بكسر الحاء المهملة) تذوب فيها جميع اللهجات فيختفي عامل من اكبر عوامل التفريق .

التاريخ : وثاني عوامل التوحيد الفعالة التاريخ — بحوادثـه ورجاله وابطاله — بانتصار الشعب وانكساره ، بافراحه وأتراحه ، بسرائه وضرائه ، بالخير الذي نعمَ به والشر الذي عمه ، بذكرياته وتقاليده وعاداته ، برواياته وأساطيره وقصصه وخرافاته، وما يثير في نفوس الشعب من عواطف وأشجان وأفراح وأحزان ، ومـا يبعث فيها من روح وثابة ويدفعها إلى الامام .

وللمحن والمآسي أثرٌ بعيد في توحيـــد الصفوف وجمع الكلمة واستفزاز الهمم . وحسبي الاشارة الى التاريخ الايطالي في القسم الثاني من القرن التاسع عشر ، والى تاريخ الشعب الالماني بعـد الحرب العالمية الاولى ، والى تاريخ ايرلنـــدة . ورب قائل : ألم تسمع بالنكبة الكبرى والمحنة العظمى ؟ ألم تسمع بفلسطين ومآسيها — بدير ياسين وحيفا وعكا والرملة واللد وصفد والفالوجة ؟ ألم ترَ اللاجئين وهم لا يزالون حتى هذه الدقيقة يفترشون الغبار صيفـــاً والأوحال شتاء ويلتحفون السماء ويبيتون على الطوى — يكاد حبل أملهم ان ينقطع ونور رجائهم ان يخبو وإرادتهم للحياة ان تنعـدم في حين ينعمُ من كتبت عليهم الذلة ببيوتهم وأملاكهم ويتخذون من نسائهم اماء ومن بناتهم جوارٍ ؟ فلم لا نرى للمحن والمآسي لدى العرب الأثر الذي نراه لها لدى الشعوب الأخرى ؟ والجواب على هـذا السؤال هو أن العرب لم يتألموا كثيراً بعد . وسيظهر أثرُ المحن والمآسي فيهم عندما تكمل ويلاتهم ويصفي الألم قلوبهم من الدغل والفساد . عندئذ ، وعندئذ فقط ، سيولدون قومياً ولادةً ثانيةً .

ويشتمل التاريخ على اسماء الرجال والمعارك وما يستفز الهمم من سيرٍ وأيامٍ مثل عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعليّ ومعاوية والمأمون وصلاح الدين واليرموك وحطين . ويشمل أيضاً ميراث الشعب العلمي والفكري وأسماء اعلامه وعلمائه أمثال الكندي والفارابي وابن سينا والبيروني والمعري والغزالي وابن رشد وابن

خلدون واليازجي الاب والابن والبستاني والشدياق والريحاني ، وغيرهم مئات .

الدين : وثالث عوامل التوحيد الفعالة هو الدين إذا ما بقي ديناً ولم يمسخ الى سياسة او طائفية . فالدين الذي تـَظهر ثماره في علاقة الانسان بالخالق وعلاقة الانسان باخيه الانسان فيقيم وزناً لقيمة الفرد وكرامته يعزز روابط الاخوة ويقرب بين الافراد حتى ولو اختلفوا في شعائر الدين وطقوس العبادة . أما اذا مسخ الى سياسة او طائفية استحال الى مصلحة من المصالح الدنيوية ، واصبح أداة للتفريق . وما من دين سخر للسياسة الا وانقلب على نفسه بلية وجلب على أتباعه الوبال .

ان سواد العرب الاعظم يدينون بالاسلام . وعلى الرغم من ان الدولة الاسلامية والاسلام لم يكونا مرادفين من يوم الفتنة الكبرى في أيام عثمان بن عفان ، وعلى الرغم من ان العروبة والاسلام لم يكونا يوماً مسميين لشيء واحد ، بل كان الاسلام اوسع واشمل ، فلا يزال الاسلام ، بعد العربية ، اعظم عامل مشترك بين العرب في جميع أقطارهم . ولقد اظهر الاسلام في الماضي من رحابة الصدر وسعة النفس ما يسر للمسلم وغير المسلم أن يعيشا في ظل خلافة واحدة وان يساهما في خلق حضارة لا يزال العالم ينعم ببركاتها . وإذا ما استعرضنا التفكير الاسلامي في العقود الثلاثة الاخيرة من السنين ومحاولات الأكثرية الاسلامية في العالم العربي للتقرب من اخوانهم غير المسلمين من العرب نرى فيها مدعاةً الى

الطمأنينة الى ان الاسلام ، وهو دين الاكثرية العربية ، لن يكون في المستقبل أداة للتفريق بل للتأليف . وكما ينتظر من الاكثرية ان تكون السابقة الى المبادرة ، ينتظر من الاقلية ، لا بل يتحتم عليها ان تكون السابقة الى اغتنام مثل هذه الفرص ، فتمد للأكثرية يد الاخاء من دون تردد او تحفظ . اما اذا أصرّ الفريقان على اقحام الدين في السياسة يستحيل الدين فوراً الى عامل من عوامل التفريق ، يقسم المواطنين الى طوائفَ متباعدة لكلٍ منها حياة خاصة تتبلور فيها ، مع الزمن ، عادات وأساليب ومفاهيم ومقاييس تحول دون التفاهم والتعاون ، واحياناً ، لا بل كثيراً ما تؤدي الى التنافر والتنازع [١]

العقلية : ورابع هذه العوامل الفعالة هو العقلية . فالعربي في جميع انحاء بلاده وأطرافها ينظر الى الامور التافهة والى الامور المهمة نظرة مماثلة . ولا سبيل الآن الى بحث هذه الناحية بحثاً مطولاً لضيق المقام . غير أنه من البديهي ان العربي في عقائده وآرائه وفي امياله وأهوائه وعوائده وفي أفراحه ومآتمه ، وفي مأكله ومشربه ، شبيهٌ بأخيه العربي على الرغم من اختلاف القطر والمذهب . هذه العقلية لم تُخلق من عدم بل كونتها اللغة وصقلها التاريخ وكيّفتها التقاليد الموروثة — من دينيةٍ واقتصادية واجتماعية وثقافية .

ومن أبرزِ العوامل التي تعمل الآن في سبيل التوحيد تلك

(١) فايز صائغ ، « الطائفية » (بيروت ١٩٤٧) ص ٨

العوامل الجديدة التي طرأت على البلاد العربية بكاملها في خلال العقدين الاخيرين من السنين . وقد تنقسم هذه الى نوعين : داخلية وخارجية . وقد نعدّد بين العوامل الداخلية هذه : انتشار المدارس ، وازدياد عدد الجرائد والمجلات ، وتقدم المطبعة العربية وازدهار مكتبتها ازدهاراً نسبياً آخذاً بالازدياد ، وتقدم الراديو والاذاعات العربية ، وانتشار السينما العربية ، على علاتها ، وتحسن المواصلات بين الاقطار العربية مجموعة وفي كل قطرٍ على حدة . فقد قرّبت وسائل المواصلات الحديثة بين اطراف البلاد وربطتها بشبكةٍ من الطرق والسكك الحديدية والطرق الجوية ، ناهيك عن مواصلات التلفون والتلغراف واللاسلكي .

ومن هذه العوامل الداخلية المشاريع الاقتصادية الحديثة من مصارف وشركات تتعدى حدود البلد العربي الواحد وتربط الاقطار الشقيقة . والعوامل الاقتصادية هذه قد تكون الآن أعظم عوامل التوحيد المادية الملموسة . ولا بأس من التذكير في هذه المناسبة بأن الاتحاد أو الوحدة السياسية بين الاقطار العربية سيبقيان حلماً لن يتحقق ما لم يسبقهما اتحاد أو وحدة اقتصادية . فالوحدة السياسية المبتغاة هي مظهر من مظاهر الوحدة الاقتصادية ودليلٌ عليها ، ولن يكون لها أثر بدونها . ولعل كل متاعب الجامعة العربية أو جلها تعود الى أن بُناتها ابتدأوا بالسياسة بدلاً من أن يبتدأوا بالاقتصاد والاجتماع ، وستبقى الجامعة العربية حسرة في القلب مالم تقم على الوحدة الاقتصادية الاجتماعية .

وعوامل هذه الوحدة الاقتصادية والاجتماعية وموادها الخام موجودة غير أنها لا تزال مهملة .

اما العوامل الخارجية التي تعمل في توثيق أواصر الاخاء العربي فتتلخص أولاً بالعوامل السياسية التي ناءت على العرب في جميع انحاء بلادهم بكلكلها من محن ومآسٍ واستعمار وخطر استعمار ومعاهدات مفروضة وتنافس الدول على ثروة البلاد الطبيعية ولا سيما النفط وعلى مركزها الستراتيجي ، وقد أشرت الى هذا في بدء كلامي ، كل هذه تدفع بالعرب رويداً وأكيداً الى الاتحاد لمجابهتها ورفع أذاها ودفع خطرها . ولست بغافل ان عدداً ليس بقليل يحاول ان يمثل دور النعامة التي تدفن رأسها في الرمل إذا ضاق بها الأمر ، أو دور القردة الثلاث الذين لا يسمعون شيئاً ولا يرون شيئاً ولا يفوهون بشيء . يعتقد هؤلاء ان العرب يستطيعون ان يقفوا على الحياد حتى تهدأ العاصفة . لقد قلت لهؤلاء في آذار من ١٩٤٨ ان الحياد اسطورة وخرافة لا بل فخ . والحياد للقوي لا للضعيف . ولست بغافلٍ أيضاً عن اسباب هذا الموقف فالعرب ناقمون على الغرب لأسباب لا تنكر . فعلاوة على النكبة الفلسطينية التي تعود في بدئها الى السياسة البريطانية والتي ساعدت على تطورها السذاجة العربية وكتبت خاتمتها الموقتة الجهالة الأميركية ، نجد ان لكل قطر عربي مسائل وحسابات معلقة مع الغرب . على ان أساليب التصفية لن تنال من النجاح شيئاً ما دامت النكاية لولب السياسة العربية الراهنة . ولن يقوى

العرب على تصفية حساباتهم مع الغرب إلا بالتعاون الوثيق والاتحاد . وإذا اتحدوا استطاعوا في آن واحد ان ينالوا افضل الشروط في تلك التصفية وأن يختاروا لأنفسهم السياسة التي يريدونها تجاه الشرق أو الغرب ، والاختيار دلالة على الحياة والقوة والحرية . فمنطق الحوادث ، حتى في موقف العرب من العراك القائم بين ما يسمى الشرق والغرب ، يشير الى الاتحاد ، لا بل يلح به كالطريق الوحيدة ألى الحياة والحرية .

ثانياً ـ العوامل الثقافية التي تتعرض لها البلاد وتعمل على نشر مُثل فكرية موحدة بين الشباب المثقف لا تبعد ان تكون الاساس الصالح في بنيان الصرح العربي الجديد . ولن أتوسع في هذا الباب الخطير الآن .

ثالثاً ـ العوامل الاقتصادية التي اخذت تتزايد في الآونة الأخيرة وهي ، وان تكن في الغالب اجنبية ، تدفع البلاد الى التكتل . وأثرها في ربط البلاد العربية بعضها ببعض بعيد جداً . وهذه أنابيب النفط التي تربط الخليج الفارسي بالبحر المتوسط دليل على ما اقول .

جميع هذه العوامل تفعل فعلها في سبيل التوحيد ، غير ان الميدان لم يخل لها ، بل لا يزال ينافسها فيه عدو عنيد يتمثل بالعوامل التي تسعى الى التفريق . وسأكتفي الآن بتعدادها تاركاً بحثها الى مناسبة اخرى .

فأول عوامل التفريق الاقليمية التي تتجلى بالوضع الراهن الذي ارتضته الأقطار العربية بعد ان رسم خريطتها الاجنبي بعد الحرب العالمية الاولى وقسمها (وما اكثر ما قاساه العرب من التقسيم) الى ممالك وجمهوريات منفصلة بعضها عن بعض ، وتلا هذا عقدان من السنين من النير الاجنبي انتهت اخيراً بعد كفاح وجهاد باستقلال اكثر هذه الاقطار عن المستعمر . وكان من الطبيعي أن توضع النبرة على الاستقلال . إلا أن هذا الاتجاه الذي اندفعت فيه الاقطار العربية في جهادها ضد المستعمر لم يتوقف بعد ان لُفظ الاجنبي من البلاد ، بل بقي العرب مندفعين فيه بفعل الاستمرار (والاستعمار) حتى أصبح العربي اجنبياً إزاء أخيه العربي . ولست من الذين ينكرون للاستقلال أو يعارضونه . غير أن هذا الاتجاه الذي اندفعت فيه الاقطار العربية يهدد بتعزيز التباعد والتفريق ، وهما ما أراده الاجنبي ولا يزال يريده ، ويحجر العرب في اوضاع قد لا تكون على مرّ الايام في صالح القضية العربية العامة .

ومما يزيد الطين بلة تنافس الأسر المالكة من ناحية وما يرافق ذلك وما يوازيه من تنافس النفوذ الأجنبي . زد على ذلك وجود مشكلة الأقليات العنصرية والطائفية وتعدد الاهداف وانتشار روح الشعوبية الحديثة والعراك الصامت بين فكرة الجامعة العربية والجامعة الاسلامية وتفاوت المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وتعدد القبل الفكرية . ولو توقفت الحال عند هذا الحد لهان الأمر . إلا ان جميع هذه العومل لا توجد وحيدة بل ترافقها

وتواكبها وتستغلها وكثيراً ما تسيّرها أيادٍ أجنبية .

بمثل هذه الحال يقف العرب اليوم على عتبة النصف الثاني من القرن العشرين . فالاخطار العالمية تكتنفهم والمشاكل الداخلية تمتص قوتهم . وقد يستولي اليأس على العربي عندما يقابل الحال، بما تتطلبه الحال لولا يقينٌ بان العوامل التي تعمل في سبيل الاتحاد هي اكثر عدداً وأبعد أثراً من عوامل التفريق . زد على ذلك ان اكثر عوامل التفريق مصطنعة او طارئة ، ولن تستقر وتسود إلا إذا خلا لها الجو وتركت دون رادع أو حد . وهذا في الحقيقة ما يخشاه كل عربي رافق القضية العربية ولا يزال يتتبع تطورها وسط بابل الأهداف والاهواء . فكثيرون من الذين يؤمنون بان الاتحاد والوحدة هما هدف العربي الوحيد ، ويدركون ان حياة العرب او فناءهم تتوقف على الاتحاد والوحدة لا يعملون في سبيلها ظناً منهم بانها سيتمان دون جهد وكفاح ، في حين ان دعاة الاقليمية يعملون في سبيل غاياتهم بغيرة وثبات يحسدون عليهما . وقد نجح دعاة الاقليمية بربطها في كل قطر عربي بمصلحة عائلية او اقطاعية او طائفية او اقتصادية ضيقة ، وسخروا لها مخاوف حقيقية واخرى وهمية وختموها بخاتم الجامعة العربية التي تحكم على العلاقات العربية بالجمود ضمن ميثاقها وبالتالي التحجر والموت، الى ان صارت في نفسها مصلحة لن يتخلى عنها اصحابها مخيرين . فالاوضاع السياسية أينما توجد تشتمل على عاملين او جزءين : اولهما فكرة رئيسية عامة او مجموعة من الفكر الجذابة، وثانيهما اسلوب عملي لاخراج الفكرة او

الفكر الى حيز الوجود وتنظيمها في وضع سياسي . هذا ما فعله اصحاب الاقليمية في كل قطر عربي. وبديهي ان الفكرة لا تحارب إلا بفكرة احسن منها ، ولا يغلب اسلوب عملي الا باسلوب عملي افضل منه . وواجب العرب اليوم ان يثبتوا باعمالهم ان فكرة الاتحاد والوحدة والاساليب العملية التي ستبتدع لاخراجها الى حيز العمل وتنظيمها هي افضل من فكرة الاقليمية وأساليبها .

ان حياة العرب في النصف الثاني من القرن العشرين مرهونة بالاتحاد . فمن هي الفئة أو النخبة المختارة التي ستحمل لواء هذه الفكرة وتبتدع لها الاساليب العملية حتى تجابه الفكرة الاقليمية وأساليبها ؟

●

لا أريد ان أُعين لأي قطر عربي رسالته لأن مثل هذا من صفات الأنبياء لا المؤرخين . غير أنني أستطيع ان أُثبت ان الفكرة العربية الحديثة وأُسسها الثقافية والأدبية لبنانية المولد والنشأة. اين ابتدأت النهضة العربية الحديثة ؟ اين تبلورت فكرتها؟ أتعرفون البستاني بطرس واليازجي الكبير والصغير والشدياق الأوحد والأسير ؟ ومن أوائل القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا ولبنان في طليعة البلدان العربية في حمل لواء النهضة العربية الحديثة ولا يزال .

حاولت في ما سبق أن ألتزم الروح العلمية والنزاهة في كل

كلمة . ولست أغالي إذا قلت ان كل كلمة مما سبق تستطيع ان تقف على رجليها العلميتين من دون سندة او عكاز . إلا ان العربي كان ولا يزال حزمة من العواطف . فاسمحوا لي ان أستسلم للعاطفة مرة واحدة . إن الدم اللبناني العربي لا يزال يجري في عروقي على الرغم من جنسيتي الأجنبية . فأبي وأمي وأجدادي إلى تسعة أجيال سقوا لبنان بعرق جباههم وعاشوا وماتوا لبنانيين عرباً . وأنا أريد لوطن آبائي وأجدادي شرف الطليعة في النهضة العربية وحجر الزاوية في صرح وحدتهم .

الحركات القومية وكره الاجانب في العالم العربي

●

في هذه الساعة الحاسمة التي يبدو فيها العالم منقسما إلى معسكرين مشتبكين في صراع مميت، يحاول كل منهما جهد طاقته ان يستميل العالم العربي إلى جانبه لسببين رئيسيين : أولهما موقعه الستراتيجي الذي يحتمل ان يشن منه اي منهما هجومه الماحق او يبني فيه وسائل دفاعه ، وثانيهما موارده الطبيعية وعلى الأخص النفط أعظم الموارد الطبيعية أهمية في زمن الحرب او في فترة الاستعداد للحرب .

ويكاد العالم العربي يقف بين هذين المعسكرين المتناحرين عاجزاً ، ضعيف الحيلة ، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً او ضرراً ، إلا ان يكون وسيلة إزعاج ، او أداة إقلاق ، وعلى لسانه دعاء واحد يردده صباح مساء : قاتل الله الطرفين. والظاهر ان الغرب، الذي كانت له اليد الطولى في مصير هذه المنطقة السياسي ، يصم بسطحية وطيش لامزيد عليهما موقف العرب هذا بكره الأجانب. أما « الشرق » ، والأصح ان نقول الشمال والشمال الشرقي ،فيبذل جهده لاستغلال أية مظلمة يعزوها العرب إلى الغرب ، ليستميل

سكان هذه المنطقة إلى عقيدته السياسية والاقتصادية ، وقد نجح في ذلك بعض النجاح .

إن الامر الذي نحاول ان نقرره في هذا المقال ليس هو ما إذا كان العالم العربي ميالاً للغرب او للشرق . فالجواب عن هذه المسألة واضح بين الوضوح ، ألا وهو ان العالم العربي ليس هذا ولا ذاك . وهو يرغب في ان يجعل علاقته باي من هذين المعسكرين أضعف ما تكون . أما السبب الوحيد الذي جعل العالم العربي يبدو معادياً للغرب فهو ان نضاله طوال نصف القرن المنصرم كان موجهاً ضد الغرب . وأغلب الظن ان العالم العربي كان سيصبح معادياً « للشرق » لولا ان الثورة الروسية عام ١٩١٧ قد أنهت علاقات روسيا المباشرة بهذه المنطقة .

ان ما نحاول ان نبحثه في هذا المقال على وجه التخصيص هو اولاً الاسباب الكامنة تحت ما يبدو انه كره العالم العربي للأجانب . وثانياً طبيعة هذا العداء للغرب ومداه .

وعلى الرغم من ان العالم العربي يؤلف ما يمكن ان يدعى وحدة إقليمية ، فانه ليس من المستطاع ، ولا من الصحيح ، ان تبحث القضية واحدة في العالم العربي كله . فلم تقم في هذه المنطقة الواسعة حركة قومية واحدة ، بل حدثت فيها حركات قومية متعددة . ولم تكن الحركات القومية واحدة النشأة والتطور ، ولا موحدة الغاية . كما انها لم تنشأ كلها دفعة واحدة ، ولم تنبثق من

أصل واحد . وهناك أقطار عربية لم تقم فيها اية حركة قومية إطلاقاً . وعلى هذا نرى من الأسلم ان نبحث كلا من هذه الحركات على انفراد وكما ظهرت في موقعها من العالم العربي . وعلى هذا الأساس سنبحث تطورات هذه الحركات القومية والاستقلالية في شمال افريقيا ، ومصر ، واقطار الهلال الخصيب بما فيها الحجاز واليمن .

شمال افريقيا

كانت هذه المنطقة — التي تتألف من مراكش ، والجزائر ، وتونس ، وما يعرف الآن بليبيا — خاضعة للامبراطورية العثمانية إسمياً ، باستثناء مراكش ، مستقلة في الواقع ، بمنجاة من سيطرة الخليفة العثماني ، بعيدة عن نفوذه . وقد حكم هذه المنطقة بايات وداياتٍ وباشوات وسلاطين وخلفاء بحسب الشريعة والتقاليد الاسلامية كما تحجرت في أوائل القرون الوسطى . وكانت تسود هذه المنطقة مؤسسات القرون الوسطى وتقاليدها وعقليتها ونظرتها الى الأمور . وكانت هذه المنطقة منطوية على ذاتها ، لا تصلها بالعالم الخارجي غير صلات قليلة واهية ، إذا استثنينا اعمال القراصنة الذين كانوا يروعون البحر الأبيض المتوسط منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر . وقد تخلفت هذه المنطقة ، نتيجة لعزلتها وانطوائها على ذاتها ونموها نمواً داخلياً ، عن جيرانها الشماليين الضاربين في طريق الحضارة والتقدم المادي ، وأصبحت فريسة سهلة الاقتناص على بناة الامبراطوريات العسكرية

من أبناء الغرب .

اغتنم الفرنسيون ، عام ١٨٣٠ ، فرصة الخلاف مع الداي على تسديد مبلغ من المال استدانته الحكومة الفرنسية خلال حملة نابليون على مصر ، ليرسلوا على الجزائر جيشاً كبيراً عدته ثلاثون الف جندي . وقد احتاجت فرنسا إلى خمسين عاماً لتثبت حكمها في هذه البلاد . وفي عام ١٨٨١ احتل الفرنسيون تونس بحجة المحافظة على الأمن والنظام على الحدود ومنع تسرب المعونة العسكرية إلى الجزائر . وفي عام ١٩٠٤ تخلت فرنسا عن نفوذها في مصر مقابل موافقة بريطانيا على إطلاق يدها في مراكش . (ويلوح لنا أنه تقوم الآن اتفاقية مثل هذه بين بريطانيا وفرنسا حيث تواجه الأولى مصاعب حقيقية في مصر ، وتواجه الثانية مصاعب أشد منها في تونس) . وفي عام ١٩١٢ دخل الايطاليون معترك بناة الامبراطوريات فاحتلوا طرابلس الغرب .

ان قصة هذه الفتوحات لشمال افريقيا لا تدخل ضمن نطاق دراستنا هذه. على انه خلال هذه الفتوحات تعرفت شعوب افريقيا الشمالية على اوربا : على شعوبها وعلى سلوكهم وطريقتهم في معاملة الناس . مجتمع متحجر يعيش في القرون الوسطى يواجه قوة أرقى منه لا تعرف التراجع ولا اللين ، تستعبد ابناءه ، وتستغل ثروته وخيراته . ان الأسلوب الذي نفذت به سياسة الامبراطوريات ، والطريقة التي قمعت بها حركات المقاومة ، والطريقة التي امتصت بها ثروة المنطقة ، لم تساعد على نمو أية صداقة او تفاهم بين الطرفين ،

وإنما ساعدت على تعاظم خوف السكان الأصليين من ان مجتمعهم وثقافتهم ومؤسساتهم بل وحتى دينهم مهددة بالفناء .

وقد تعاظم هذا الخوف بتعاظم العنف الذي استخدمه الغزاة الفاتحون لقمع حركات المقاومة التي قامت بها هذه الشعوب لتحرير اوطانها . ومع ان كون هؤلاء الغزاة الدخلاء مسيحيين ، وسكان البلاد الأصليين مسلمين ، إنما هو مسألة عرضية ، فقد كان ، أي هذا الفارق الديني ، يعقد المشكلة ، واصبح على مرور الزمن جزءاً جوهرياً من الخصام القائم . وعلى هذا فان أي عمل كان الفرنسيون يقومون به لتوطيد دعائم حكمهم في شمال افريقيا كان يفسر بانه هجوم مباشر على سكان البلاد الأصليين ، وعلى مؤسساتهم ، ومجتمعهم ، وثقافتهم ، ودينهم . وقد أصبح الاسلام ، نتيجة لهذا ، نداء تجمع لمقاومة الأجنبي ، وآلة احتجاج ضده . اما الأجنبي فقد توصل بدوره إلى نتيجة مؤداها ان وضعه في هذه البلاد لا يمكن ان يرسخ ويستقيم أمره ما لم يعطل هذه الآلة النافذة . وقام الفرنسيون ، إلى جانب تثبيت سلطانهم السياسي عسكرياً في هذه المنطقة ، باتباع خطة ذات شقين ، نفذوها بمثابرة وهدوء ، ترمي الى تشجيع نشاط الارساليات التبشيرية المسيحية والجهود الثقافية الأجنبية بين السكان الأصليين ، ومحاربة نشر الاسلام وتقوية دعائمه وذلك بسن قوانين تحدد ، بل وتحرم في اغلب الاحيان ، تعليم اللغة العربية التي هي الحليف الثقافي للاسلام . وبهذا تبدد ما كان عالقاً في أذهان السكان الأصليين من شك في

ان هذا الصراع المحتدم بين الفاتحين والمدافعين إنما هو صراع قائم بين المسيحية والاسلام اصلًا . كان شمال افريقيا المسلم ، بنظر عامة السكان الاصليين ، يواجه حملة صليبية جديدة ، يتحتم عليهم اعلان الجهاد عليها ، وصد عدوانها .

وقد شجع الفرنسيون هجرة الاوربيين الجماعية الى هذه المنطقة واعانوهم على الاستقرار فيها . كما قاموا باعطاء كل الافضليات الممكنة الى الجاليات غير المسلمة المستقرة فيها، وبخاصه الجاليات اليهودية . والحق ان الفرنسيين لم ينسوا ابداً ان الغاية الأساسية من غزوهم لهذه البلاد إنما هي السيطرة على مواردها الاقتصادية .

وكان من الامور الطبيعية ان يجلب الفرنسيون الى هذه البلاد طريقتهم في المعيشة،واسلوبهم في الحياة ، ومدنيتهم الخاصة. وكان لا بد للمدنية الفرنسية ، ولطريقة العيش الفرنسية ان تصطدم بمدنية السكان الاصليين وطريقتهم في العيش . وقد ازداد الخلاف حدة عندما اكد الفاتحون على اهمية الجوانب المادية من حضارتهم ، ووسائل الترف فيها بخاصة . وبغض النظر عما في هذه القضية من حق او باطل فان تأثير الاساليب والمقاييس الاوربية على السكان الاصليين ، الذين لم يتأثروا بالروح الكامنة وراءها ، كان تأثيراً سيئاً ، مفسداً للآداب ، مثبطاً للعزائم . وطبيعي كذلك ان يبذل السكان الاصليون ، او الذين انتبهوا منهم الى هذه المشكلة وملابساتها الخطيرة ، جهد طاقتهم لصد تيار هذه الحضارة الاوربية

العادية .

وعلى هذا فقد شمل هذا الصراع كل مظاهر الحياة — السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بل والدينية ايضاً . وكان رد فعل السكان الاصليين ، المشحون بكل هذه العناصر التي تقدم ذكرها ، والتي يكفي واحد منها لاثارة صدام اساسي كبير ، طبيعياً ، مركزاً ، حاداً . اما الاشكال التي تشكل بها هذا الصدام فمختلفة متنوعة . وهي تتضح احسن ما تتضح ويمكن تتبعها بالامور التالية : اولاً بالحركات السياسية التي قامت في طول هذه المنطقة وعرضها والتي كانت تصطبغ على الدوام بصبغة دينية،ثانياً بالحركات الوطنية التي ظهرت الى الوجود نتيجة للضغط الاوربي ، وثالثاً بنمو الصناعة الوطنية ، ورابعاً بالمقاومة العامة للحكم الاجنبي .

وقد اصبحت جميع هذه الحركات وسائل للاحتجاج على الفاتحين ومقاومة عدوانهم . وطبيعي ان تنمي هذه الحركات بدرجات متفاوتة ، تخوف السكان الاصليين من كل شيء اجنبي ، سواء في ذلك الافكار والناس ، وخاصة التخوف من الحضارة والثقافة الاوربية اللتين تمثلان بنظرهم الرجل الاوربي الذي يناضلون ضده ، ويحاولون صد عدوانه . ونتيجة لارتباط الحضارة الاوربية بالحكم الاوربي المقيت في اذهان مسلمي شمال افريقيا ، فقد ولدت هذه الحركات كرهاً للاجانب وخاصة كرهاً للاوربيين ، وبغض كل ما يمت الى الحضارة والثقافة الاوربية .

مصر

كان اول معرفة مصر بالغرب الحديث قبل حوالي قرن ونصف قرن ، حيث نجحت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون باحتلال البلاد مدة ثلاثة اعوام . وبالرغم من الادارة الرشيدة التي اقامها نابليون في مصر ، والاصلاحات العديدة التي حققها فيها ، فقد كان الجيش الفرنسي بنظر عامة المصريين جيشاً غازياً معتدياً . ولكن كتب للنفوذ الفرنسي ان يرسخ في مصر . فقد ظل حكام مصر من بعد نابوليون وأخصهم محمد علي وأحفاده يتطلعون الى فرنسا كلما احتاجوا الى عون ثقافي وتقني . على ان بريطانيا — التي يعود اليها فضل طرد الجيش الفرنسي عام ١٨٠٣ الى حد بعيد — مالبثت ان واجهت مصر بالأمر الواقع حينما اغتنمت فرصة انشغال الفرنسيين بحل مشاكلهم في تونس والهند الصينية ، ومشاكلهم مع المانيا بخاصة ، فأنزلت جيوشها الى الاسكندرية عام ١٨٨٢ ، بحجة حماية الاوربيين . كان احتلال بريطانيا لمصر هذا اجراء موقتاً . فقد قيل ان حكومة غلادستون لا تنوي احتلال مصر باي شكل من الاشكال . ولكن الجيوش البريطانية ما زالت معسكرة في مصر حتى يومنا هذا .

وأخذت الحركة الوطنية في مصر تصطبغ بصبغة العداء للاجانب منذ بداية هذا الاحتلال المؤقت . ومهما يكن من شيء فان المصريين لم يرحبوا بالحكم البريطاني ، في حين ان الانكليز يعتبرون وضعهم في مصر جزءاً جوهرياً من نظامهم الامبراطوري . وولدت

المقاومة المقاومة ، وأنتج العنف العنف . وقد ضاعف عدم مقدرة المصريين على تحرير انفسهم من السيطرة البريطانية من شعورهم بالفشل ، وألهب عواطفهم . اما النتيجة الطبيعية لهذا الصراع العنيف غير المتكافيء فهو الحقد الدفين .

وفي مصر ، كما في شمال افريقيا ، صادف ان كان اغلب المصريين مسلمين ، والانكليز مسيحيين . فانتهى الأمر الى ان اصبح الاسلام ، في مصر أيضاً ، اداة مقاومة واحتجاج . ولكن بنتيجة الصفة العالمية التي تتمتع بها كبرى المدن في مصر : القاهرة والاسكندرية ، وبسبب مصالحها التجارية الواسعة مع اوربا ، وبسبب موقعها الممتاز الواصل بين القارات الثلاث ، لم تبلغ العداوة للاجانب في مصر حد البغضاء لكل شيء اجنبي ، او حد التنكر للحضارة والثقافة الاوربية كما حدث في شمال افريقيا . والحق ان الحركة في مصر ، تحت تأثير جمال الدين الافغاني وتلاميذه محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول وحسن البنا مؤسس جماعة الاخوان المسلمين ومرشدها الاول ، كانت ترمي الى تملك النواحي المادية من الحضارة الاوربية واستخدامها في الدفاع عن الاسلام ، وفي صد عادية الغرب . والظاهر إنه لم يكن ليقلق بال كثير من المصريين ان يعلموا فيما إذا كان من المستطاع ، او من غير المستطاع ان يضعوا الحضارة الاوربية في حقيبتين منفصلتين تحتوي احداهما على عناصرها المادية والاخرى على عناصرها الروحية ثم يأخذوا احداهما ويتركوا الاخرى . ويكاد المصريون جميعاً ان يعزوا

تفوق الغرب وسيادته الى قوته المـــادية . ومن هنا أصبح من الضروري لهم ان يبادروا الى الحصول عـــلى تلك القوة المادية ويستخدموها لتحطيم سيطرة الغرب وسلطانه .

بدأ الانكليز احتلالهم المؤقت لمصر عام ١٨٨٢ كما تقدم معنا . وفي مطلع الحرب العالمية الاولى اعلنوا حمايتهم على البلاد واستبدلوا السلطان بالخديوي . وفي أعقاب تلك الحرب طلب سعـد زغلول واثنان من رفاقه من المندوب السامي البريطاني ان يسمح لهم بالسفر الى لندن للمفاوضة بشأن الغاء الحماية على مصر واعلان استقلالها . ولكن المندوب السامي أعلمهم بانه غير مخول ان يجيب طلبهم باي شكل من الاشكال . وقد سجلت هذه الحادثة ميلاد حزب الوفد المصري ، بل ميلاد الحركة المصرية ذات الاهداف الواضحة في الحقيقة . وانقضت عشر سنوات قبـــل ان يقتنع البريطانيون بضرورة الغاء الحماية ، والتلويح بامكانية رفع حالة الطوارىء التي كانت تمسك بخناق البلاد منذ بداية الحرب العالمية الاولى . وانقضت خمس عشرة سنة ، كانت مليئـــة بالاضرابات والتظاهرات واعمال العنف والاغتيالات السياسية ونفي الزعماء الوطنيين بالجملة ، قبل ان تنظم العلاقات المصرية — البريطانيـــة بالمعاهدة البريطانية المصرية لسنة ١٩٣٦ .

كان الحكم البريطاني ، بغض النظر عن الأسماء التي تسمى بها ، يزعج الوطنيين المصريين ، ويضايقهم ، ويملأ قلوبهم غماً . وفشل الاحتلال المؤقت ، والحماية ، والاستقلال الاسمي والمعاهدة اليوم ،

ان تزحزح البريطانيين عن مصر ، وتريح المصريين منهم .

وكانت هذه المعاهدة بالنسبة الى بريطانيا وسيلة لاستمرار تسلطها على البلاد وعلى قناة السويس بخاصة . وعند اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ توضح للمصريين ، اكثر فأكثر ، بان على مصر إما ان تساير السياسة البريطانية وتخدم مصالحها ، او تخضع للاحتلال البريطاني السافر من جديد . ولكن مصر سلمت من هذا المصير في الظاهر ، بثمن باهظ لكل من بريطانيا ومصر ، عندما اقتحم السفير البريطاني ، في ٤ شباط من عام ١٩٤٢ ، القصر الملكي ، وفرض على الملك فاروق بجد المسدس ، النحاس باشا ، مرشح بريطانيـــا لرئاسة الوزارة [١] . وقد حفظت المصالح البريطانية مؤقتاً ، ولكن كرامة الملك الشاب المهانة ، ما فتئت تضايقهم وتقض مضاجعهم .

وقد عملت التطورات الأخيرة ايضاً على تقوية الشعور الوطني في مصر . وأهم هذه التطورات قيام دولة إسرائيل بوساطة دسائس الغرب وتأييده ، والعنف المتزايد الناتج عن حماية بريطانيا لوضعها المضعضع في مصر ، الذي لا تمكن حمايته والدفاع عنه . وقـــد أظهرت الحرب المصرية — الاسرائيلية ، فيما أظهرت ، ان سبعين عاماً من احتلال بريطانيا لمصر وسيطرتها عليها ، وخاصة عـــلى الجيش ، قد اخفقت إخفاقاً ، لا يبعـــد ان يكون مقصوداً ، في تزويد مصر بجيش قادر على القيام بوظيفة الجيش الوحيدة المشروعة

(١) وقد اضطر هذا الملك ان يخضع للمسدس مرة اخرى عندما أكره في ٢٣ تموز ١٩٥٢ على تطهير بطانته وثانياً في ٢٦ منه عندما خلع واقصي عن البلاد.

— ألا وهي الدفاع عن الوطن . وقد وضع اندحار القوات المصرية ، وعلى الأخص في الفالوجة ، هذه الحقيقة نصب أعين المصريين . فقاربت كل المرارة المختزنة ضد الأجانب ، وضد البريطانيين خاصة ، حد الانفجار .

واستؤنفت الحركة لتخليص البلاد من السيطرة البريطانية ، بحرارة متزايدة ، من قبل نفس الرجل الذي فرضه الانكليز على الملك فرضاً عام ١٩٤٢ ، لتؤدي إلى إلغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد في ١٥ تشرين الأول ١٩٥١ . وقد جند النحاس كل ما عند ابناء الشعب من احتياطي عاطفي وكل ما يضمرونه للانكليز في قلوبهم من حقد وضغينة ، ولكنه اخفق في حشد موارد البلاد الحقيقية ومؤسسات حفظ الأمن فيها لتدعم عمله . وكانت الكارثة امراً محتوماً ، محقق الوقوع .

على انه كان مقدراً لأبشع مظاهر كره الأجانب ان تحدث عقب الهجوم البريطاني المسلح على قوات الشرطة الاحتياطية في الاسماعيلية الذي تسبب عنه قتل خمسين جندي ، وجرح حوالي الثمانين ، وأسر اكثر من الف ، بعد ان قصفت الثكنة بالمدافع قصفاً شديداً حتى انهارت على المدافعين عنها من المصريين . واذا لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي ادى الى حريق القاهرة التاريخي من قبل الغوغاء في يوم السبت المصادف ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٢ ، فقد كان بلا شك الشرارة التي اشعلت البارود . ولكن مهما كانت الاسباب التي ادت الى ذلك الحريق الهائل ، ومهما كانت العوامل

التي اذكت لهيبه ، وبغض النظر عن الخراب والدمار الذي تركه بوجه المدينة المادي ، والذي انزله بسمعة مصر في الخارج ، فان حريق القاهرة يجب ان يفسر دائماً بكونه تجسيما لرغبة المصريين في التخلص من الحكم البريطاني ، والتدخل البريطاني .

بلاد الهلال الخصيب

كانت بلاد الهلال الخصيب جميعاً — التي تشمل العراق وسوريا ولبنان وفلسطين وكذلك جزء من الجزيرة العربية الذي كان يعرف حينذاك بالحجاز — حتى نهاية الحرب العالمية الاولى خاضعة للسيادة العثمانية . فمنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر اخذ الاتراك العثمانيون يحكمون العالم العربي الواقع في آسيا باعتباره جزء من امبراطوريتهم . واغلب الظن ان كون الاتراك العثمانيين مسلمين كان العامل الاكبر في قبول العرب للحكم التركي ، وعلى الأخص إذا علمنا ان عقلية القرون الوسطى التي كانت تعتبر الانسان فرداً من جماعة دينية اولاً ومواطناً في هذا القطر او ذاك ثانياً ، كانت ما تزال سائدة آنذاك . وكانت القومية والولاء القومي ، بمفهوميهما العصريين ، غير معروفين البتة . وعلى هذا كان ابناء « الرعايا » هم الوحيدون الذين كانوا يحاولون الانفصال عن الحكم العثماني ، ويشعرون دائماً بان هذا الحكم العثماني انما هو حكم اجنبي دخيل . وكانت اغلبية هؤلاء « الرعايا » تسكن الاقسام الاوربية من الامبراطورية العثمانية ، وفي تلك المناطق اخذت المقاومة الاولى

للسيادة العثمانية تفصح عن ذاتها وتؤكد وجودها . على انه منذ القرن التاسع عشر اخذت فكرة القومية تظهر للوجود بشكلها الواضح، اولاً في اوربا، ثم في الاقسام الاوربية من الامبراطورية العثمانية . اما المناطق العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني فقد استجابت لهذه الفكرة الجديدة الدينميكية استجابة ضعيفة بادىء ذي بدء ، ثم استجابات متعددة الاشكال ، متفاوتة الدرجات فيما بعد . وكان اول من بشر برسالة القومية بين العرب ، كما هو متوقع ، هم ابناء « الرعايا » أي المسيحيين الذين وجدوا في القومية أداة صالحة ليس فقط للتخلص من السيادة العثمانية ، بل وللخروج من حدود الدائرة الاسلامية الى وسط أرحب حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين من العرب أن يذيبوا انفسهم في ولاء واحد شامل .

وقد أحيت اليقظة الثقافية العربية — التي لاحت طوالعها في اثناء الحملة النابليونية على مصر والتي حفزتها الفعاليات الثقافية لمختلف الجمعيات التبشيرية المسيحية ، في الوقت نفسه — اهتمام العرب بتراثهم القومي ، وابتعثت اعتزازهم به. وقد اكتسب هذا التحول الحي المتردد نحو القومية طاقة دافعة وتصميما أكيداً عندما اصبح الاتراك اكثر إلحاحاً في مطالبهم على العرب ، وعندما اصبحت ادارتهم اعظم تفسخاً وانحطاطاً ، وأشد تمييزاً بين السكان . وقد ساعد الحكم الحميدي — الذي امتد من سنة ١٨٧٦ الى ١٩٠٨ ، والذي تميز بكبته للحريات ، واجراءاته الاستبدادية ، ومذابح

للاقليات الدينية — على نمو الشعور القومي بين العرب . وكانت الفترة التي انقضت بين سقوط عبد الحميد في سنة ١٩٠٨ وقيام الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤ ، فترة حافلة بالنشاط القومي المركز ضد السيادة التركية . وفي الحق ان كل الجمعيات العربية السرية ، تقريباً ، قد ظهرت خلال تلك الفترة من الزمن .

وقد اكتسبت عداوة العرب للعثمانيين طاقة دافعة عندما وعد الحلفاء العرب بتأييد امانيهم الاستقلالية ، مقابل معاونة العرب للحلفاء ضد الاتراك وحلفائهم خلال الحرب العالمية الاولى ، وقد بلغت هذه الحركة اوجها عندما دعا الحسين ، شريف مكة ، العرب الى الثورة المسلحة على الخليفة العثماني في حزيران من عام ١٩١٦ .

ان مطامح الحسين الشخصية ، وتشجيع الحلفاء ، ومواعيدهم ومساعداتهم للعرب ، بالاضافة الى اماني العرب القومية انفسهم ، وحقدهم على الاجراءات الباغية التي نفذها جمال باشا في سوريا ، جعلت هذه الثورة امراً محتوماً لا بد من وقوعه . على ان الاهمية الكبرى لهذه الثورة تنحصر في كون المسلمين قد ثاروا على اخوانهم المسلمين ، وعلى خليفتهم وسلطانهم في سبيل فكرة ما — مهما كانت هذه الفكرة غامضة . وكانت هذه الفكرة هي القومية العربية . وزيادة على ما تقدم فان هؤلاء العرب المسلمين قد حالفوا المسيحيين مؤملين تحقيق امانيهم القومية .

أما قصة نكث الحلفاء بوعودهم التي اعلنوها للعرب خلال

الحرب ، وخيبة آمال العرب، فمعروفة تمام المعرفة . فبدلاً من ان يتمتع العالم العربي بحريته واستقـــلاله ، قسم الى مناطق نفوذ وانتدابات. وخير من يصف لنا حقيقة الانتداب هو اللورد كرزن في خطاب القاه في مجلس اللوردات في ٢٥ حزيران سنة ١٩٢٠ . فالانتداب بنظر اللورد كرزن ما هو إلا أسطورة خيالية ما دام نظام الانتداب بأسره قد اخترع لتقسيم المناطق المحتـلة بين الغزاة الظافرين .

اما المناطق العربية — التي انتزعت من العثمانيين بمعونة العرب أنفسهم — فقد توزعتها بريطانيا وفرنسا . وأضحت قصة الانتداب هي قصة الصدام بين القومية العربية وبين سياسـة بريطانيا وفرنسا الامبراطورية . وقد اكتسبت الحركة الوطنية في كل قطر عربي صفة العداوة والبغضـــاء لهاتين الدولتين . ولكن على الرغم من القسوة التي استخدمتها هاتان الدولتان لاخماد حركات المقاومـــة العربية لسياستهما الامبراطورية ، وعلى الرغم من المرارة التي ولدها نكثهم بوعودهم السابقة للعرب ، بل وعلى الرغم من خيانـــة بريطانيا الظاهرة لعرب فلسطين بعد ان حكمتهم خمساً وعشرين سنة ، فان الحركة الوطنية في أي بلد عربي لم تنقل هذه العـــداوة وتلك البغضاء الى الثقافة الاوربية ، والافكار الاوربية . وتشبـه اقطار الهلال الخصيب مصر من هذه الناحية . فقد اخـــذ الناس يطلبون الافكار الاوربية ، ويقتبسونها ، بدون تمـــيز تقريباً ، ويتقبلونها بقضها وقضيضها .

ان هذه « البلاد السعيدة » لما تعرف بعد ماهية القوميـة ، ولم تشهد قيام أية حركة قومية في ربوعها لانها بقيت مستقلة ، منعزلة . واسلوب الحكم فيها اسلامي يعود الى القرون الوسطى . وبامكان المرء ان يقول بان هـذا القطر العربي ما زال يعيش في القرن الثالث عشر ، وما زالت اليمن ، بسبب التجارب المريرة التي عانتها اخواتها العربيات اللاتي يفقنها حضارة على أيدي الدول الاوربية ، تنظر الى اوربا والى الاوربيين والى الثقافة والافكار الاوربية نظرة ملؤها الشك والخوف اللذين هما قوام البغضاء .

أن من يتتبـع بتجرد وحياد هـــذا القرن ونصف القرن من الصدام القائم بين الحاكمين والمحكومين يجد ان الحقيقة المهمة ليست هي وجود كراهية للاجانب بل بالاحرى عدم وجود الكراهيـة للاجانب الى حد بعيد . ان كراهية الاجانب لم تكن الدافـــع للقومية العربية باكثر مما كانت الدافع للقومية الاميركية في القرن الثامن عشر ، وللقومية الايطالية في القرن التاسع عشر ، وللقومية الارلندية في القرن العشرين . وكراهية الأجانب هذه إنما تكون جزءاً جوهرياً من كل حركة قومية . فعندما تكون البـلاد قوية فان حركتها القومية تجد تعبيراً لها في العزلة عن العالم ، أو حتى في الاعتداء على البلاد الاخرى . اما عندما تكون البلاد ضعيفة فانها قد تجد تعبيراً لها في الخوف والحقـــد . ولكن جميع الحركات القومية تشارك في جملة «ستيفان ديكاتور» المشهورة:« وطني اولاً :

ظالماً أو مظلوماً » .

لا ارانا متجنين على العقل ، مخالفين للمنطق إذا استنتجنا من الحقائق المتقدمة بان العرب ، وحتى المسلمين ، إنما يكرهون الاجانب ليس لأنهم أجانب بل بسبب تجاربهم مع هؤلاء الاجانب وبسبب خوفهم منهم . وقد كان العرب يسيرون تلقاء اوربا على اكثر من طريق واحدة ، كما شوهد خلال الفترة التي اعقبت احتلال نابليون لمصر ، وخلال العهد الحميدي ، وقبيل قيام الحرب العالمية الاولى نفسها . فقد حالف العرب خلال الحرب العالمية الاولى على الخصوص ، المسيحيين وتعاونوا معهم ضد العثمانيين اخوانهم في الدين . وعلى الرغم من خيبة آمالهم المريرة بالحلفاء بعد الحرب العالمية الاولى ، وبالرغم من تجربتهم القاسية للادارة البريطانية والفرنسية الاستعمارية ، فقد انضموا الى الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، ولكنهم ما عتموا ان وجدوا الحلفاء يضحون بهم في سبيل القومية الاسرائيلية القائمة على الجنس والدين . لاعجب ان العرب لايحبون هؤلاء الاجانب ، والعجيب كل العجب ان يفعل العرب غير هذا .

اميركا كما تراها شعوب الشرق الاوسط [١]

●

قامت لجنة التحقيق الاميركية المعروفة بلجنة : « كنج — كرين » قبل اثنين وثلاثين عاماً ، باجراء تحقيق محايد نزيه عن رغبات العرب السياسية . وقد وجدت هذه اللجنة ، فيما وجدت ، ان اجماع الرأي العام منعقد على تحبيذ وصاية الولايات المتحدة على البلاد ، اذا كان لا بد لها من قبول وصاية دولة اجنبية . ولو أعيد مثل هذا التحقيق اليوم فبأمكان اي مراقب سياسي حسن الاطلاع ان يتنبأ عن النتيجة . فستُرفض الولايات المتحدة باكثرية قد تزيد على الاكثرية التي كانت تطالب بمساعدتها قبل ثلاثة عقود من الزمن .

ولاجل ان نحدد اسباب هذا التغيّر في شعور العرب ، لا بل وفي شعور سكان الشرق الاوسط والمسلمين عموماً ، يجدر بنا ان نفحص تطور سياسة الولايات المتحدة — او انعدامها — في الشرق الاوسط ، خلال الثلاثين عاماً المنصرمة . كما ويجدر بنا ، في الوقت

---

(١) طلبت رئاسة تحرير مجلة Life الأميركية الى كاتب هذا المقال ان يدلي برأيه عن هذا الموضوع . وقد ظهرت فقرات من هذا المقال في عددها الخاص بموضوع « آسيا » الصادر في ٣١/١٢/١٩٥١ .

نفسه ، ان نقدر حق القدر ارتفاع مدّ الاماني القومية ، والحركات الوطنية المنبثقة منهـا ، في وجه محاولات بريطانيا وفرنسا الرامية الى الاستمرار في تطبيق سياسة القرن التاسع عشر الاستعمارية في القرن العشرين . ويجب علينا ان نقول ، ونحن في مطلع البحث ، ان هذه الاماني القومية التي تمثل اعنف قوة دينميكية انتقلت من الغرب الى الشرق الاوسط ، يمكن ان تلخص بهدف واحد ، ذي شقين ، يسعى جميع شعوب الشرق الاوسط الى الوصول اليه ، الا وهو : تحقيق الاستقلال التام بتحرير البلاد من اية سيطرة اوتدخل اجنبي ، ورفع مستوى البلاد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي .

تعرفت شعوب الشرق الاوسط على اميركا ، اول ما تعرفت عليها ، بوساطـة ارسالياتها الدينية والثقافية والخيرية . فقد وصلت اولى هذه الارساليات عام ١٨٢٠ . وبقي اتصال الولايات المتحدة بالشرق الاوسط ، خلال مئة العام التالية ، خارج دائرة السياسة . وعلى هذا فقد تمكنت الولايات المتحدة ، نظراً لعدم وجود مصالح سياسية لهـا في الشرق الاوسط ، من البقاء بمعزل عن معترك السياسي . وهذا ما اضفى هالة من النور على جبينها ، وزاد في تعاظم سمعتها الطيبة ما كانت تقدمه من اعمال خيرية ، والاشخاص الذين كانوا يتولون الاشراف على تلك الاعمال . فقد قام اولئك الرجال بنكرانهم ذواتهم وتضحياتهم ، باجـل الخدمات في سبيل تعزيز العلاقات الحسنة ونشر النيات الطيبة بين الشعوب .

ازدهرت المدارس والكليات الاميركية في طول هذه المنطقة

وعرضها ، من طهران الى بيروت ، ومن استانبول الى اسيوط ، وقد اظهرت هذه المدارس اميركا باحسن حالتها ، وطبعت شخصيات اميركيـة ممتازة — مثل جيسب (جدّ فيليب جيسب السفير فوق العـادة) وفانديك (الاب والابن) وكلهـون وبلس (الاب والابن) — بما قاموا به من خدمات جليلة طوال حياتهم ، صورة لاميـركا في اذهان شعوب الشرق الاوسط ، كانت اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة . ومن هؤلاء الاميركيين تعلم الايرانيون والاتراك وعرب الهـلال الخصيـب ومصر درسهم الاول في الديموقراطية والوطنية . فهل كان بالامكان تدريس قصـة الثورة الاميركية من دون اذاعة افكارها ونشر مثلها العليا ؟ او هـل كان بالامكان تـلاوة خطبة ابراهيم لنكولن في جتيزبرج ، بحماسة واعـتزاز ، في اجتماعات المدارس ، من دون غرس افكارها عن « حكومة الشعب ، بالشعب ، ولاجل الشعب » في عقول السامعين ، وعلى الاخص السامعين ، الذين كانت تسلخ جلودهم سياط الطغاة : وطنيين واجانب ؟ واي انسان ، في مثل هـذه الحالة الفاجعة ، يستمع دون ان يتحرك وجـدانه الى كلمات باترك هنري المثيرة ، « اعطني الحرية او اعطني الموت » ؟

ويجب ان نضيف الى ما تقدم صورة اميركا التي رسمها المهاجرون من ابناء الشرق الاوسط . لقـد هربوا ، في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، من شدائـد الامبراطورية العثمانية الاقتصادية والاجتماعية ، فوجدوا في العالم الجديد ملجأ آمناً ، حيث

استطاعوا ان يشقوا طريقهم في الحياة ، دون ان تعترضهم عوائق العالم القديم ، ومن حيث ما فتئوا يبعثون الى اهلهم بالكثير من ثمرات نجاحهم المدهش .

وقد وضعت النقاط الاربع عشرة ، التي نادى فيها المرحوم وودرو ولسون بمبدأ حق جميع الشعوب في تقرير مصيرها ، حجر الزاوية في سمعة اميركا الطيبة . وكانت الخطب ، في الكنائس والجوامع ، ترصّع باقتباسات من هذه النقاط ، فاكتسبت كلمة « اميركي » اشراقاً وبهاء لم يحظ بهما اي اسم او لقب من قبل.

وكانت صورة اميركا والاميركيين هذه تقارن، دائماً ،بصورة الاجانب الآخرين ، وعلى الاخص الافرنسيين والانكليز ، الذين كان العرب ينوؤن تحت وطأة انتدابهم منذ نهاية الحرب العالمية الاولى . فكانت مصلحة الحكام والمحكومين متعارضة ابداً بسبب تنافس الدول الاوربية على السيطرة على هذه المنطقة ، وبسبب نموّ الاماني القومية في قلوب شعوبها .

إن اهمية الشرق الاوسط العالمية تقوم على موقعه السوقي (الاستراتيجي) ، وعلى موارده الطبيعية ، وعلى الاخص النفط . ولو كانت شعوب هذه المنطقة قادرة على استغلال موقع بلادها السوقي ومواردها الطبيعية لمصلحتها الخاصة ولمصلحة العالم لما نشأت هذه المصاعب الحاضرة ، في اغلب الظن ، ولما شاهد القرن التاسع عشر تلك المأساة السياسية المسماة بالمسألة الشرقية ، ولما شاهد القرن العشرون الادوار نفسها يؤديها ممثلون آخرون ، قد يكونون اقل

مهارة واعظم صلفاً .

واذ لم تبلغ شعوب الشرق الاوسط المدى الذي بلغه الغرب اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ،فقد ظلت مقدرتهم على التطور محدودة، وبقيت امانيهم القومية دون تحقيق . ولما كانت اعظم مقاومة لقيتها هذه الاماني القومية قد جاءت ، بطبيعة الحال ، من قبل الدول ذات المصالح الكبرى ، ومن قبل فرنسا وبريطانيا على وجه التعيين ، فقد اصبح ابناء الشرق الاوسط ميّالين لالقاء سبب كثير من سوء احوالهم عليهما . ولقد كانت الفترة التي انقضت بين الحربين ، فترة صراع بين جميع شعوب الشرق الاوسط وهاتين الدولتين . فلم تنقض سنة دون قيام حركة عصيان او ثورة كبيرة في احد اقطار الشرق الاوسط . ونال كل من مصر وفلسطين وسوريا ولبنان والعراق وايران حظه من العنف .

ولمس الشرق الاوسط بارقة من الامل خلال الحرب العالمية الثانية . فقد اجبرت ضرورات الحرب هاتين الدولتين على ان تلوحا للشعوب بالاستقلال وتحقيق امانيهم القومية . وفي الحق ان جزءاً من آمال شعبين من شعوب الشرق الاوسط ، اي سوريا ولبنان ، قد تحقق ، ولما تنته الحرب، بفضل ضغط الولايات المتحدة الذي جاء في وقته المناسب . وكما كان متوقعاً فقد ارتفعت سمعة اميركا بين شعوب الشرق الاوسط ، واصبحت محط آمالهم ، باعتبارها حاملة راية الحريات الاربع ، ومبادىء ميثاق الاطلسي.

ولكن ما ان تحقق النصر للحلفاء حتى اخذت الصورة تتغير. فمع

ان شعوب الشرق الاوسط تابعت النضال في سبيل استقلالها ورفع مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، فان فرنسا وبريطانيا كانتا غير مستعدتين لتصفية امبراطوريتيهما. كما أنهما لم تستطيعا الاحتفاظ بهاتين الامبراطوريتين متماسكتين دون معونة وسند خارجي. فما كان باستطاعة فرنسا وبريطانيا، وحدهما ان تحتفظا بسيطرتهما على تسع محميات وثلاث مستعمرات وخمسة أقطار تحت الاحتلال العسكري في العالم العربي وحده. هذا بغض النظر عن تحقيق السياسة الاستعمارية تحت ستار المعاهدات المفروضة فرضاً فيما يسمى باقطار الشرق الاوسط المستقلة. إذ تكاد تكون جميع المعاهدات التي تربط مختلف بلاد الشرق الاوسط ببريطانيا وفرنسا قد عقدت تحت الضغط والاكراه. ويعتبر الشخص العادي في الشرق الاوسط الولايات المتحدة شريكاً صامتاً في جميع الاعمال الدبلوماسية التي قامت بها فرنسا وبريطانيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وهذا هو السبب الرئيسي لشكهم في نواياها وعدم ثقتهم بها.

فعلينا ان نعتبر نهاية الحرب العالمية الثانية، بغض النظر عن صحة هذه النظرة او بطلانها، نقطة التحول الخطيرة في دور الولايات المتحدة في الشرق الاوسط، وفي سمعتها بين شعوبه. إذ لم تعد الولايات المتحدة بمعزل عن الشرق الاوسط، نائية عنه. فقد قذفت بها الحرب نفسها الى منصب الزعامة والمسؤولية. وأصبح لها الصوت المهيمن فيما يقرره حلفاؤها من سياسة، وفيما يقومون به من اعمال، سواء كانت هذه السياسة والاعمال صغيرة ام كبيرة.

وقد أصبح لها زيادة، على ما تقدم، مصالحها الخاصة في هذا الجزء من العالم، وهي مصالح دولية محسوسة معينة خطيرة النتائج.

لقد كانت مصالح اميركا في الشرق الاوسط، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ضئيلة، لا تستوجب اتخاذ سياسة خاصة حيالها. اما الآن فان الشرق الأوسط يملي على الولايات المتحدة الاهتمام به باعتباره مركز الثقل في القضايا العالمية، سواء كان ذلك في وقت السلم أو الحرب. ومن هنا يتحتم على الولايات المتحدة ان تكوّن لها في الشرق الأوسط سياسة واضحة الأهداف، مدروسة بعناية. فطالما كانت السياسة الدولية تكره الفراغ، فانه ليس بوسع الولايات المتحدة ان تسمح لدولة غير صديقة في ملء الفراغ المسبب عن احتمال انسحاب دولة صديقة.

ان الشرق الاوسط هو المنطقة الوسطى الواقعة بين المعسكرين اللذين يبدو ان عالمنا قد انقسم اليهما. إنه المنطقة الحاجزة التي يحتمل أن يشن منها احد المعسكرين الهجوم على الآخر، أو يبني فيها خطوطه الدفاعية. واميركا مهتمة بهذه القضية اهتماماً عميقاً كأي دولة اخرى.

لا عجب، إذن، إذا كانت الولايات المتحدة قد أبدت اهتماماً فعالاً بالنزاع الانكليزي – الايراني حول النفط، والخلاف الانكليزي – المصري حول قناة السويس (وهو أمر تهتم له الولايات المتحدة حتى ولو لم تصحبه المضاعفات الاسرائيلية)، وأزمة المعاهدة بين انكلترا ومصر. على ان مصلحة اميركا هذه،

بحكم الضرورة ، قد جعلتها تقف في صف الحكومة البريطانية التي توالي شعوب الشرق الاوسط النضال ضدها في سبيل الحصول على استقلالهم . وأن هذه الشعوب لم تستطع ، حتى الآن ، أن ترى الحالة العالمية كما يراها الاميركيون . ولا يفترض فيهم ان يفعلوا ذلك حتى يصبحوا شركاء مع الاميركيين ، يتقاسمون الخير والشر على السواء .

ويبدو ان الامبراطوريتين اللتين ما زالت شعوب الشرق الاوسط تكافحها طوال نصف القرن المنصرم آخذتين في الانحلال ، وأن الولايات المتحدة في نظر الكثيرين ، تقوم بدور الوريث لهما . وأن قوة الولايات المتحدة في هذه الحالة – وليس ما يصحبها من مشاكل ومتاعب – هي التي تشغل المحل الأرفع من تفكير شعوب الشرق الاوسط . فمن اليسير عليهم ان يتصوروا ان الولايات المتحدة تتعمد إضعاف هاتين الامبراطوريتين لتستولي على تراثهما وتمد في رقعة امبراطوريتها الجديدة الخاصة . وإذا لم يكن هذا صحيحاً فان الولايات المتحدة تكون قد ساندت أعداء شعوب الشرق الاوسط التقليديين وهي عمياء عن نتائج عملها . ومهما كانت الحال فان شعوب الشرق الاوسط لم يحظوا بشيء من الاطمئنان أو الراحة من تجربتهم الحديثة للسياسة الاميركية ، او لانعدام مثل هذه السياسة ، في مجال التطبيق .

ولا يظهر الشعور بالقلق والخوف وعدم الثقة والغيظ قوياً ، واضحاً ، في قضية ما ، مثل ظهوره في قضية فلسطين . ومن

البديهي ان مشكلة فلسطين ليست من خلق الولايات المتحدة . وإنما هي ثمرة السياسة البريطانية ، وتفسير النبوءات التورائية تفسيراً مريباً . فقد اقنعت ضرورات الامبراطورية وزارة لويد جورج الائتلافية ان تصدر على لسان بلفور أغمض وثيقة دبلوماسية أعني تصريح بلفور . لقد اقتنع البريطانيون بصحة القضية التي طالما أكدها التاريخ ، القائلة بان السيطرة على مصر (وعلى قناة السويس بطبيعة الحال) ، لا يمكن ان تتحقق وتكون مضمونة ، إلا بالاحتفاظ بقواعد في سوريا (الطبيعية) . وكانت القيادة العليا تتوقع ان يحل اليوم الذي تتحرر فيه مصر نهائياً من السيطرة البريطانية . وعلى هذا سيؤدي خلق دولة « صديقة » في فلسطين الى حماية المصالح البريطانية .

وكانت سنوات ما بين الحربين ، كما تقدم ، سنوات نضال شنه العرب ضد هذه السياسة . وكان البريطانيون يملكون القوة المادية والسياسية لفرض خطتهم ، وكان الصهاينة يملكون المهارة على استغلال الجانب العاطفي والانساني من الرأي العام الغربي . اما العرب فلم يكونوا يملكون غير الحق ، فخسروا .

وفي اللحظة التي لاح فيها بارق من الامل في ان العالم الجديد – الذي يعتبر حامل لواء حقوق الانسان والشعوب ، والمدافع عن العدالة ، والمنادي بتطبيق المبادىء الاخلاقية في المحادثات والعلاقات الدولية – سيخف لنجدة العرب ، ذاق العرب امرّ خيبة للامل : صفعة على الوجه من يد صديق . ومما لا شك فيه ان

اولئك الذين لم يطلعوا على حقيقة القضية الفلسطينية وتقسيمها بين العرب واليهود ، او الذين لم يهمهم امر هذه القضية إطلاقاً ، لم يروا فيها ما يخدش الوجدان . اما بالنسبة الى العرب فان تصرف الولايات المتحدة كان بعيداً عن التصور . وما هي غير عشية وضحاها حتى تحولت مرارة العرب التي كانت موجهة في السابق نحو الانكليز ، الى الولايات المتحدة ، وقد تضاعف فيها الغيظ والحنق اضعافاً . ولا يقتصر هذا الشعور على العرب وحدهم . فالمسلمون عموماً ، داخل الشرق الاوسط وخارجه يشاركون فيه. فلقد اصبحت مشكلة فلسطين رمزاً لعدم نضج الغرب، وبخاصة اميركا ، وسوء نواياه في العلاقات الدولية .

ومما قوى هذا الاعتقاد الطريقة التي عالجت بها الولايات المتحدة نتائج المشكلة الفلسطينية وسلوك مندوبيها المتحيز في كل ما له مساس بالقضية . فلقد اهملت الولايات المتحدة فرض قرارات هيئة الامم المتحدة المتعلقة بفلسطين بمثل الهمة والحماسة التي فرضت بها قرار الامم المتحدة حول كوريا . ولم تقم باية محاولة لتنفيذ قرار التقسيم الاصلي الذي أقرته هيئة الامم المتحدة ، ولضمان تدويل منطقة القدس ، ولتطبيق القرارات المتعلقة باللاجئين العرب . ولم تبدِ أي ميل الى فصل سياستها العربية العامة عن سياستها الاسرائيلية . ونتيجة لما تقدم اصبحت جماهير العرب والمسلمين وسكان الشرق الاوسط عامة ، وقادتهم مقتنعين بان الولايات المتحدة ، وليس بريطانيا ، هي الآن عدوتهم ، والعقبة الوحيدة

التي تحول دون تحقيق امانيهم . ولئن بدا هذا الذي نقوله تفسيراً غير منصف ، وغير ناظر بعين الاعتبار الى ما عسى ان يكون من ظروف مخففة ، فهو في الحقيقة يمثل صورة القضية كما ينظر اليها العرب . وهذا ما يجب على اميركا ان تضعه نصب عينيها وتعالجه عندما تضع سياستها للمستقبل .

ويتضح الاعتقاد بعداء اميركا للعرب مرة ثانية ، في استجابة قادة الشرق الاوسط وجماهيره لموقف الولايات المتحدة من الخلاف بين بريطانيا وايران حول تأميم النفط، ولموقفها من الخلاف الانكليزي – المصري حول الملاحة في قناة السويس، ولموقفها من الغاء المعاهدة الانكليزية – المصرية لسنة ١٩٣٦ ، ولموقفها من الحركة الوطنية في شمال افريقية ، وعلى الاخص في مراكش ، واخيراً لموقفها من قيادة الشرق الأوسط (او ما يسمّى في العربية بالدفاع المشترك عن الشرق الأوسط) . ان قضية شمالي افريقية تقع خارج نطاق بحثنا هذا ، اذا اردنا التحديد ، من الوجهة الجغرافية، ولكنها تقع ضمن نطاق هذا البحث سياسياً نظراً لأهتمام جميع المسلمين الذين يؤلفون أكثر من ٩٠٪ من سكان الشرق الاوسط بها،ونظراً لما يرون فيها من ملابسات–أعني ان الولايات المتحدة قد وقفت في صف اعدائهم الالداء .

قد لا يكون ما ذكرناه آنفاً عظيم الخطورة في حد ذاته لولا ان له جوانب اخرى . ان السياسة الاميركية خاضعة ، بطبيعة الحال ، للناحية العالمية من الصراع ضد الشيوعية الدولية . ولكنها

باخفاقها في اظهار اي اهتمام بامانى شعوب الشرق الاوسط القومية المشروعة، فقد اعدت الارض الخصبة لنمو الشيوعية بينهم. فاميركا الآن ، في نظر الرجل العادي في الشرق الاوسط ، قد وقفت في صف المستعمرين ، بينما غدت روسيا نصيرة الوطنيين والمدافعة عن حقوقهم. ومما زاد هذا الوضع الشاذ تأكيداً ان الحكومة الاميركية قد درجت على التعامل مع الحكومات فقط ، في حين تفصل بين الحكومات القائمة في الشرق الأوسط وبين شعوبها هوة سحيقة . وهذه الحكومات هي ، بطبيعة الحال ، حارسة الوضع الراهن الذي تقوم عليه مصالحها الخاصة . وقد أصبح على اميركا ، بحكم الضرورة ، ونتيجة لأهتمامها الشديد بالاستقرار في هذه المنطقة ، ان تتعامل مع هذه الحكومات . وعلى هذا اصبحت الشكوك تحوم حولها ، وتتهمها بانها قد اصبحت حليفة لهذه الحكومات ، ولما تمثله هذه الحكومات من رجعية وفساد واستبداد. اضف الى هذا اتهام شعوب الشرق الاوسط اميركا بمعارضة امانيهم القومية ، تكمل عندك صورة اميركا كما تراها هذه الشعوب .

ولم تكن السياسة الاميركية وحدها موضوعاً لنقمة جماهير الشعب في الشرق الاوسط فحسب ، بل ان الطريقة التي اتبعت في تنفيذ هذه السياسة قد تعرضت للنقد اللاذع ، واثارت الكثير من الهواجس والشكوك . فقد يعاب على الاميركيين اظهارهم المنة والغطرسة في تعاملهم مع شعوب هذه المنطقة، واعتقادهم بان الدولار قد ينجح حيث اخفقت النيات الحسنة. ويصدم الاميركيون عادة ،

عندما يكتشفون بان الناس لا ينظرون اليهم كما يجب ان ينظروا الى المحسنين وواهبي العطايا السخية . صحيح ان بلدان الشرق الاوسط ، وكثيراً من البلدان الاخرى ، قد انتفعت بما قدمته لها الولايات المتحدة من مال ومساعدات فنية . وصحيح كذلك —لسوء الحظ— انه بينما اميركا قد اعطت بسخاء من ثروتها المادية ، لم تعمل الا الشيء القليل على تسكين آلام الجراحات العميقة في عقول الشعوب وقلوبها. « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » —وليس من اليسير على الأنسانية المجروحة جراحات عميقة ان تنهض لتشكر من يقدم لها الآلات الزراعية ، والمنافع المنزلية العصرية ، والمرطبات والعلكة .

لا شك في صدق نية الحكومة الاميركية والشعب الاميركي ، في سعيهما لنفع الشرق الاوسط ، بوساطة رفع مستوى الحياة فيه ، وفي ايجاد احسن الطرق واضمنها لمقاومة انتشار الشيوعية . ولكن النية الطيبة التي يفترض ان تولدها هذه المساعي قد قضى عليها اعتقاد العرب بان كل مشروع للمساعدة لا بد وان ينطوي على صفقة مريبة ولقد استاءت شعوب الشرق الاوسط استياءً شديداً من منح الحكومة الاميركية الدول العربية السبع منحة مقدارها ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ دولار ، ومنح اسرائيل المبلغ نفسه . فسكان الدول العربية يعدون ما لا يقل عن اربعين مليون نسمة ، بينما سكان اسرائيل لا يكاد يبلغون المليون ونصف المليون . ويظهر أن القسمة الجائرة نفسها قائمة فيما يتعلق بمشروع قيادة

الشرق الاوسط ، الذي يقال بانه سيجهز الدول العربية واسرائيل بالسلاح بنسبة متساوية : بندقية مقابل بندقية، ودبابة مقابل دبابة، ورصاصة مقابل رصاصة .

لقد وصف خطر الشيوعية العالمية وصفاً حياً لشعوب الشرق الأوسط . وأخبروا بان الغرب عازم على الدفاع عنهم بموافقتهم ، ما أمكن الحصول على موافقتهم، وبدون موافقتهم إذا ما اقتضت الحال ، فالوقت عنصر جوهري من عناصر القضية . وقد ردّ على هذا أحد الزعماء بقوله : « لا يوجد شيء يسمى بالخطر الشيوعي في مصر أو في أي بقعة من بقاع الشرق الأوسط . إن هذا الخطر موجود في أذهان الانكليز والأميركان فحسب ». إن موقف هذا الزعيم هو انموذج لتفكير الناس في الشرق الأوسط ، وهو يصدر عن ضغينة ونكاية ، أكثر مما يصدر عما تستوجبه الحال . وهنا تكمن المأساة . فما يعتقده المرء ، بغض النظر عن صحته أو خطأه ، هو الذي يؤثر في أفكاره وسلوكه . ولما كان الشخص العادي في الشرق الاوسط مستاءً من الغرب (وأميركا بنظره هي الغرب)، شديد الحنق عليه ، فهو مستعد أن يؤيد كل دولة تعادي ما يفهمه من الديمقراطية الغربية .

والشيوعيون يعرفون هذا الموقف الذي تقفه شعوب الشرق الاوسط معرفة تامة ، ويستغلونه أحسن استغلال. فهم يستخدمون اسلوبهم المجرَّب في ربط الشيوعية بامانى سكان المنطقة القومية وآمالهم في الحياة. وما فعله الشيوعيون في الصين وفي الهند الصينية

واندونيسيا والملايو يفعلونه في الشرق الاوسط ، بنجاح لا بأس فيه . وان الوعود التي يقدمها دعاة الشيوعية لشعوب الشرق الاوسط عن اصلاح الاحوال وايجاد حياة أفضل ، بالاضافة إلى حنق هذه الشعوب الشديد على الغرب، قد تواطأت على جعل سكان الشرق الاوسط ما يمكن ان يسمى بـ « شيوعيي النكاية » .

وسبب مهم آخر لتردّي سمعة اميركا هو التنافس القائم ، حتى في ساعة المحنة هذه ، بين الولايات المتحدة وحلفائها . ففي حلبة السياسة ، حيث تتنافس الدول على مد سيطرتها واكتساب أنصار لها ، كثيراً ما تلام اميركا على مواقف لم تقررها وحدها . وسواء أكانت هذه الحال نتيجة مناورات سياسية متقصدة من قبل حلفائها أم لا ، فالنتيجة واحدة : ان سمعة اميركا في الشرق الأوسط قد تدنّت .

لقد بيّنت الأزمة الحاضرة ، بوضوح، حاجة أميركا إلى اصدقاء وحلفاء. كما بينت ايضاً سخف اية محاولة لاقامة تحالفات وصداقات على اي اساس ، غير الاساس المكين الراسخ من نوايا الشعوب الطيبة . ان اميركا لا تتمتع الآن بثقة الشعوب وحسن نواياها . ولكن الوقت لم يفت لتستعيد مركزها القديم كصديق كريم للشرق الاوسط .

يجب على اميركا، إذا ارادت ان تحقق هذا ، ان تصوغ للمنطقة باسرها سياسة شاملة بعيدة الأمد ، وتستبدل بها هذه المجموعة من السياسات المتعاقبة المرتجلة . ويجب أن تتمشى هذه السياسة مع

مثلها الديمقراطية . ويجب ان تستهدف ربط قضية الديمقراطية بامانى شعوب الشرق الاوسط القومية المشروعة ، كما ويجب ان تطبق بصورة تجعل ثمرات الديمقراطية المحسوسة ، على الدوام ، أشهى من الوعود التي يلوح بها الشيوعيون للشعب ، ويجب ان تقنع الشعب بان السياسة الاميركية لا تعتبرهم أشياء ثانوية بالنسبة للمصالح الاميركية .

ان التطبيق العملي لهذه السياسة يستوجب ما يلي :

١ – يجب ان توضح الولايات المتحدة لحليفتيها الرئيسيتين ، بريطانيا وفرنسا ، بانها يجب ألا يؤملا في مساعدتها وتأييدها في سياسات لا تتفق ومبادىء الديمقراطية الأميركية وتؤدي إلى قمع أماني شعوب الشرق الاوسط القومية .

٢ – يجب على الولايات المتحدة ان توالي إسداء المعونة المادية والفنية للشرق الاوسط دون ان تكون هذه المعونة مرتبطة باية غاية اخرى ، حتى لا تتخذ طابع مساومة عند قوم عرفوا بحنكتهم التجارية وحذقهم في المساومة .

٣ – يجب على الولايات المتحدة ان تحاول إصلاح سياستها الفلسطينية الخاطئة الخطرة ، وذلك بتطبيق قرارات هيئة الامم المتحدة حول فلسطين والمتعلقة بحدود اسرائيل وتدويل منطقة القدس واعادة اللاجئين العرب الى وطنهم او تعويضهم عن املاكهم . وإذا لم تستطع ان تفعل ذلك فبامكانها ، على الأقل ، ان تمهد

الطريق لحل من الحلول مبني على العدالة والديمقراطية .

فما لم تستطع الديمقراطية ان تستولي ، من جديد ، على خيال الجماهير ، وما لم تصل ثمراتها الى كل مدينة وبلدة وقرية ، وما لم تحصل مثلها العليا من انصارها على اكثر من كلمات معسولة ، وما لم يدافعوا عنها ويحموها في الخارج كما يدافعون عنها ويحمونها في الداخل ، فانها لن تستطيع ان تقف امام تيار الشيوعية الجارف .

يقول ريموند فوزدك ، في مقاله الرائع : « يجب الا نخاف من التغيّر » (المنشور في « نيويورك تايمز مكزين » – ٣ نيسان ، ١٩٤٩) : « ليس في العالم فكر ممتازة ترسم من حولها الطلاسم لتحميها من المنافسة . ان الأحرار وحدهم هم الذين يجرأون على التفكير . وانه لا يمكن ابقاء روح الشعب حيّة إلا بوساطة الافكار الحرة المعبر عنها بحرية » .

في هذا الصراع القائم بين الديمقراطية والشيوعية ، يجب على الولايات المتحدة ، نصيرة الديمقراطية ، ان تغرس روح الحرية في الشرق الاوسط وتنميها وتدافع عنها . إذ على شعوب الشرق الاوسط الحرة يجب ان تعتمد اميركا إذا ارادت ان تربح المعركة العتيدة وتبقى ، كي تحيا الديمقراطية ولا تمحى من على وجه الارض .

اعادة البناء [1]

●

سنة اخرى تدور دورتها فتسير قوافل المنتهين والمنتهيات امام رؤساء معاهدهم ويتسلمون من ايديهم الشهادات والجوائز ، ويقبل الوالدون والوالدات والاقارب والاصدقاء مهنئين . وما ان تتلاشى هذه الاصوات حتى يقف المهنئون على عتبة معترك الحياة وجهاً لوجه مع المستقبل . والمستقبل في احسن حالاته مجهول ، يقبل عليه الانسان وملء برديه الامل احياناً والوجل احياناً اخر . والحالة النفسية التي يجابه بها الانسان مستقبله وليدة حاضره .

واقل ما يقال في الحاضر العربي انه مخيف ، وكذلك الحاضر العالمي . فعالمنا مملوء بالمخاوف ، محفوف بالاخطار ، مهدد بالويلات يخيم عليه القلق والخوف . والخوف كما تعلمون يولد في الفرد والمجتمع عداء للتطور ويدفعهما الى التمسك باهداب الحاضر او التهرب الى ذكريات الماضي . وما اكثر ما يترحم الناس على

(١) القيت هذه الكلمة في حفلة اليوبيل الخمسيني وتوزيع الشهادات في مدرسة «الفرندز» في رام‌الله ، الاردن ، في ٢ تموز ١٩٥١

الماضي لا لسبب سوى النقمة على الحاضر والخوف من المستقبل ، فيرددون مع الشاعر :

لله ايامنا ما كان احسنها
والشام ما كان احلاها بواديها
كنا معا في نعيم لا يمل فهل
تعود أزمنة عيناي تبكيها ؟

ان هاتيك الايام لا تعود ، ولن تعود ، ويجب الا تعود . إذ على الرغم من جميع المحن والمصائب التي ألمت بالعرب ، على الرغم من ذلك كله اقول اننا نعيش في زمن يفوق كل ما سبقه من ازمنة خطورة يجعل الحياة في حد ذاتها شرفاً وامتيازاً ، وتتطلب سهراً مستمراً ، وجهاداً ، وتلقي على عاتق كل فرد تبعة ايما تبعة .

انتم اذن ايها المنتهون الذين تقفون على عتبة حياتكم العلمية في احرج فترة من التاريخ العربي تغبطون على هذا الامتياز . اقول هذا مع علمي ان عالمكم الذي نشأتم فيه فتيان وفتيات قد درست معالمه وتلاشت قيمه وتحطمت مقاييسه وانقلبت اوضاعه رأساً على عقب . وقد وكل اليكم ان توجدوا له بديلاً وان تقيموا صرح مستقبل افضل وابقى . فأسس البنيان القديم انهارت وعفى عليه العرم لانها كانت مبنية على رمل . وقد اعطي لكم ان تقيموا مكانها اسساً جديدة مبنية على صخر . وحذار ان ايام الرخاء

واليسر ولت وحل محلها الجهد والعسر .

فمهمتكم التي انتدبتم للقيام بها هي ان تعيدوا بناء صرح هدمه الزلزال . عليكم ان تنقذوا الوطن المفقود من ايدي المغتصبين واهم من هذا واشد إلحاحاً أن تنقذوا الشعب . فما هي الخطوات التي ينتظر منكم ان تقوموا بها لاتمام هذا الواجب المقدس في اروع فترة من التاريخ .

اولى هذه الخطوات او الواجبات ان تقاوموا كل ما يطيب لكم ان تنظروا الى الوراء . فقد علمتني الحياة درساً تلقنته في ايام حداثتي ولم أتفهمه إلا بعد ان خبرت الحياة واتعابها . فلما كنت صغيراً درست نظير اخوتي واخواتي الكتاب المقدس بقصصه وادبه وسير رجاله . وكثيراً ما ترددت على مسامعي قصة امرأة لوط وما آل اليه امرها لما خرجت وذويها من سدوم وعمورة وكان الملاك قد امرهم ألا ينظروا الى الوراء بل يتابعوا المسير الى الامام . غير ان امرأة لوط لم تستطع إلا ان تنظر الى الوراء فتحولت فوراً الى عمود ملح . لم اصدق القصة آنذاك ويصعب ان اصدقها الآن ، غير اني افهم اليوم مغزاها . فالحياة لا ترحم احداً يتعلق باهداب الماضي ويصبو اليه ، كذلك لا ترحم الحياة شعباً يفضل العيش في الماضي على السير في جادة العمل والامل . ومن يحاول ان يعيش في الماضي يمت مهما يكن ذلك الماضي عظيما ومجيداً .

ثاني ما ينتظر منكم ألا تستسلموا إلى اليأس . أنا اعلم بالفشل

تلو الفشل الذي مني به العرب في جهادهم القومي ولا يزالون . أنا اعلم ان عدداً كبيراً من اللاجئين لا يزالون حتى هذه الساعة يفترشون الغبار صيفاً والأوحال شتاء ويلتحفون السماء ويبيتون على الطوى ، يكاد حبل املهم ان ينقطع ونور رجائهم أن يخبو وارادتهم للحياة ان تنعدم .

انا اعلم بعدم الاكتراث واللامبالاة بمصيرهم . غير اني اعلم ايضاً ان لا داعي للعربي ان يستسلم لليأس ما دام في النفس رمق حياة . وما اليأس إلا فالج روحي يشل اعصاب كل من ابتلى به من الأفراد والشعوب . وحاجتنا اليوم إلى رجال اشداء ، لا الى اشلاء إذا اردنا ان نتم المهمة الملقاة على عاتقنا حتى تبارك الأجيال المقبلة .

وثالث ما ينتظر منكم الا تستسلموا إلى الشك . فالعربي اليوم بسبب من تكسر نصال المصائب على النصال في حياته ، وبسبب من تهافت قيمها ومثلها ، وبسبب من تحطم آماله ، اصبح يشكك في كل شيء حتى نفسه . ولن اعجب اذا انبرى واحد منكم مشككاً في صدق ما اقوله الآن ومرتاباً في قيمته . والشك يولد الخوف ، والخوف يولد النقمة ، والعربي ناقم على المجتمع وعلى اوضاعه ومثله ، ناقم على البشرية وعلى آمالها ، ناقم على الحياة وعلى احلامها . وهو اشبه بشمشون بعد ان غدرت به دليلة وجز شعره وسملت عيناه ، قد يغتنم اقرب فرصة للانتقام من اعدائه حتى إذا ادى ذلك إلى الانتحار . فهو يتلمس اعمدة الهيكل وما ان يستند اليها حتى يدفعها

بقوة النقمة واليأس قائلًا : « علي وعلى اعدائي يا رب » .

إن واجبكم ايها المنتهون ان تبرهنوا للملأ ان الروح العربية على الرغم من كل ما انتاب العرب من فشل وخيبة ، وعلى الرغم من كل ما ألمّ بهم من مصائب وويلات ، لا تزال ثائرة جبارة ، تأبى ان تسحقها التجارب ، بل ستخرج لا محالة من نيران الأزمات نقية مصفاة من الدغل والفساد ، تصبو إلى الجهاد الدائم والعمل المنظم المستمر .

ستخرجون من هذا المجتمع المدرسي المثالي الى مجتمع حطمت آماله الخيبة ، وشل قوته الخوف ، وحجر امانيه اليأس ، وشوهت روحه النقمة . وقد وقعت عليكم تبعة بعثه مجتمعاً ملء برديه الأمل ، مفعم القلب بالثقة ، قوي الروح بالمحبة . نعم — الامل والثقة والمحبة — كلمات لا تزال معانيها حية . وواجبكم الذي ينتظركم خارج المدرسة ، لا بل الشرف الذي تغبطون عليه هو ان تعيدوا الى هذه المعاني قواها الفعالة ، وتردوا اليها سلطانها حتى تعود بالعرب الى جادة المجد والفلاح .

ورب قائل « انّى يكن لنا هذا ، والحال كما ذكرت » . فاسمحوا لي ان اجيب على مثل هذا السؤال بتعداد خطوات عملية بسيطة تضمن لنا النجاح اذا وضعت موضع العمل . اولاها ان يهتم العربي بشؤونه ويفيها حقها قبل ان يهتم بشؤون غيره . ولو اولينا فلسطين من الاهتمام ما قد اوليناه كوريا والصين مثلًا لما آلت الحال الى ما آلت اليه . وكثيراً ما يكون اهتمامنا بالامور البعيدة

وسيلة للتهرب من الواجبات الملحة . وذووا القربى اولى بالمعروف .

وثانية هذه الخطوات العملية ان يتم الفرد منكم عمل كل يوم بيومه بامانة واخلاص واتقان مهما يكن ذلك العمل صغيراً . ولست بحاجة الى الزيادة في هذه النقطة البديهية لولا ان البعض لا يقبلون على الأمر إلا اذا كان كبيراً ويحتقرون الامور الصغيرة لانها صغيرة — ناسين ان حصاة صغيرة كثيراً ما تسند البنيان وتحول دون انهياره .

وثالثة هذه الخطوات ان يدرك العرب ضرورة العمل المنظم التعاوني المستمر ، لأن الارتجال والفردية والطفرة زالت ولن تعود .

غير ان هذه الخطوات لا تقتصر على الأمور العملية بل تتناول كذلك وجهة نظر الفرد إلى نفسه وإلى عمله وإلى مواطنيه وإلى حكامه والأخيرة هي اهم ما يجب ان يناله التطور . فقد تعود العربي ان يخاف الحكومة ويخشاها ويحسبها السيد المطاع مع انها في العرف الديمقراطي بمثابة الموظف أو الخادم المطيع . والحاجة إلى مراقبة الحكومة ومحاسبتها بينة واضحة ، وبها ، في النهاية يتم الاصلاح . والشعب الديمقراطي في الحكم الديمقراطي لا يخشى الحكومة بل يحترمها ، ولا يخافها بل يراقبها ، ويتعاون معها في سبيل المصلحة العامة .

وقد ينبرى في عصر الشك هـذا واحد ويقول : « ما هـــذه الترهات التي لا تجدي نفعاً ازاء جسامة الموقف وخطورته. اتبعث هذه البسائـط للعرب قوتهم ومجدهم وتعيد لهم ما فقـــدوه من فلسطين ؟ »

جوابي على هذا السؤال واضح وصريح . ان هذه البسائط لا تبعث قوة ولا تعيد وطناً مفقوداً . غير انها تفتدى شعباً وتعيـد اليه الثقة والقوة والارادة للحيـاة . وما لم نفتد الشعب ونعد اليـه الارادة للحيـاة لن نستعيد الشعب ولن نستعيد الوطن . وعليـكم انتم يا ايهـا المنتهون ان تسيروا في طليعة القوى القومية التي تعمل في سبيل الشعب وانقاذه من الجوع والعري والعوز والجهل والشك واليأس والقنوط اولاً وقبل كل شيء .

ومنكم يا ايها المنتهون ننتظر شيئاً آخر . عندما تخرجون الى معترك الحياة وتقتحمون لجتهـا عليكم أن تحتفظوا بمثاليتكم التي تدربتم عليها في جو المدرسة المثالي ، وأن لا تنقطعوا عن أن تحلموا احلامـــاً وان تروا رؤى . فـلا يتميز الانسان عن الحيوان إلا باحلامه وبجهوده المتواصلة في سبيـــل تحقيقها . واعظم ما يحتاج العرب اليوم في وسط هذه الفترة العصيبة المستحكمة بهم وفي غمرة الشك واليأس والخوف هو ان يستعيدوا القوة على أن يحلمـــوا احلاماً ويروا رؤى ويواصلوا العمل على تحقيقها .

واني أرى بعـين الرجاء شعباً صهرته المحن وطهرته الآلام ، يحدوه الايمان ويشد ساعده العلم ، ينتصب ليجيب على تحـديات

الاعداء ويبرهن للعالم ان حيرتنا قد استحالت إلى يقين وقلقنا إلى طمأنينة وخوفنا إلى اقدام وشكنا إلى ثقة ويأسنا إلى أمل وضعفنا إلى قـوة ، ويبين للناس جميعاً ان الروح العربية ، كالعنقاء الطائر العربي ، لن تمـوت البتة ، بل تنبعث من وسط الرماد وتعود إلى الحياة وهي تفيض قوة ونشاطاً وأملاً .

الجامعة العربية في عامها الثامن[1]

●

يحتفل العرب اليوم بميلاد الجامعة العربية الثامن . وقد كانت الاعياد ولا تزال مناسبات اشبه بتلك المرآة الصغيرة التي توضع قبالة السائق في السيارة لينظر فيها من حين الى آخر فيرى من خلفه ويتحاشى ما قد يدهمه فيما اذا اراد ان يقف بسيارته او يدور بها يميناً او شمالاً .

واود اليوم ان نغتنم هذه الفرصة المناسبة لنلقي نظرة خاطفة في هذه المرآة الخلفية . وأول ما نراه ان هذه الجامعة لا تزال وليدة الأمس وان ايام نموها لا تزال امامها على الرغم من ان سنيها الثماني كانت سنين عجافاً لا قطر فيها ولا خصب .

فقد ولدت الجامعة تلبية لأماني وآمال دغدغت العرب نحواً من قرن كامل على الاقل ولم يستطيعوا تحقيقها بسبب من الكابوس العثماني اولاً والكابوس الانتدابي الذي « بلقن » بلادهم ثانية ، أي جعلها بلقاناً ثانياً متعدد الأقطار مفرق الكلمة تسير الدول الاجنبية

(١) ٢١ آذار ١٩٥٣ .

ذات المصلحة سياستها . ولم يكن تصريح وزير الخارجية البريطاني الاول في ٢٩ ايار ١٩٤١ وتصريحه الثاني في ٣١ آذار ١٩٤٣ سوى اشارة الى ان الحواجز الخارجية لم تعد تقوى على صد هذه الآمال لا سيما وقد دفعت الاحوال العالمية آنذاك المصلحة البريطانية في مجرى موازٍ للمصلحة العربية .

واخيراً تجسدت هذه الآمال في ميثاق الجامعة العربية فولدت الجامعة في جلبة من الحماسة والتفاؤل . وعقد العرب على هذه الوليدة آمالهم وأملوا أن تكون هذه الجامعة نقطة انطلاقهم في النصف الثاني من القرن العشرين والخطوة الاولى في سبيل التعاون فالاتحاد فالوحدة والمساهمة الفعالة في اسرة الدول الحية والسير إلى الأمام في موكب الحضارة .

هذا ما رجاه العرب وصبا اليه الخاصة والعامة . غير ان الميثاق في ايدي المسيطرين من دعاة البلقنة العربية اصبح وثاقاً يكبل مساعي العرب نحو التعاون ويخنق امانيهم في سبيل الاتحاد ويزهق آمالهم في سبيل الوحدة مع ان الوحدة كانت ولا تزال هدفهم منذ بدء نهضتهم الحديثة .

وأمل العرب ان تصبح هذه الجامعة ، على علاتها ، أداة صالحة لجمع شتاتهم ولحل قضاياهم وتحسين احوالهم ودرء الخطر عن بلادهم فاستحالت في ايدي دعاة البلقنة مقهى لتبادل النكات ، ومطعماً للتنعم بالوان الطعام ، ضاعت فلسطين تحت مناسفه وتبخرت آمالهم بين أكوابه .

عقد العرب آمالهم على الجامعة العربية لأنهم رأوا فيها الى حد تجسيداً لفكرة طالما حلموا بها. فتحولت في ايدي دعاة البلقنة الى ناووس حنطت فيه تلك الفكرة. أراد العرب لهذه الفكرة تجسيداً فلاقت في الجامعة تحنيطاً ، أرادوها تنبض حيوية فلاقت في براد الجامعة تجميداً . وكان ان تدهورت العلاقات بين الأشقاء والشقيقات وقامت بينهم القطيعة في جميع مظاهرها . ومرت على البلاد العربية فترة من الزمن توقف فيها المصريون عن ارتياد مصائف لبنان ، وصدت أبواب المدارس العراقية في وجه المدرسين المصريين ، وارتفع سور القطيعة الصيني بين سورية ولبنان ، وقامت المعاقل والثغور بين الحدود العربية .

وكانت النتيجة ان فشل العرب منذ قيام الجامعة في جميع جهودهم السياسية تجاه العالم المحيط بهم ، وفي معظم جهودهم المحلية لرفع مستوى الشعب ، فارتبط اسم الجامعة بالسخرية والفشل ، فشمت بنا الأعداء — أعداء العرب وأعداء الفكرة العربية من العرب انفسهم . وعندي ان فشل الجامعة هذا في الحقلين الخارجي والداخلي لهو من اكبر الاسباب في فشل الفكرة القومية وطغيان الفِكر الاخرى ، إن اسلامية او شعوبية او اقليمية ضيقة .

والسبب الاول والآخر في فشل الجامعة يعود الى ثلاثة امور : اولها ميثاق الجامعة الذي يؤكد على الاقليمية ويؤدي حتماً الى البلقنة . وثانيها سيطرة الجيل القديم على مقدراتها ، ولن تكون اية مؤسسة خيراً من المسيطرين عليها مهما تكن فكرتها حسنة الغايات

سليمة الاسس . فمقدرات الجامعة كانت حتى الامس في ايدي جيل لم يتجاوز تفكيره السياسي الفترة الواقعة بين العهد الحميدي والحرب العالمية الاولى ، فوقفت الجامعة لذلك عند الحدود السياسية ولم تتعداها الى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بجد . وثالثها ان الجامعة حاولت ان تجمع دولاً ودويلات لم تتبلور بعد مقوماتها ، وفي الوقت نفسه استهدفت الامعان في بلقنتها وفي التأكيد على عوامل التفريق كالسيادة الوطنية وشد الجامعة الى السياسة المصرية حيناً والى المحور المصري السعودي او المصري السوري حيناً آخر . وجعلها ميداناً للتنافس الاسروي ونقطة ارتكاز لمرجحة التوازن العربي . ولن تكون اية منظمة من هذا النوع افضل من اعضائها ولا اقوى من اضعف عضو فيها . فقوتها كقوة السلسلة تقاس باضعف حلقاتها .

هذا ما نراه عندما ننظر في تلك المرآة الخلفية. غير ان السائق الذي يرقب ما خلفه فحسب ولا ينظر الى الامام فمصيره التدهور لا محالة. فعلينا اذن ان نتطلع الى الامام والى ما يجب ان يكون مستقبل الجامعة .

ان فشل الجامعة في تحقيق ما عقده عليها العرب من آمال ، وفشل العرب في بعض نواحي جهادهم القومي لا يعني فشل فكرة الجامعة نفسها ولا فشل العروبة التي نؤمن بها . ان فكرة الجامعة العربية لم تفلس عندما افلس القائمون عليها ، كما ان العروبة لم تفلس عندما مني العرب بالفشل في بعض نواحي جهادهم القومي

لأنهم صدفوا عن روحها وابتعدوا عن جوهرها . ولم يفلس الا حرباآت العقائد الذين يلبسون لكل حالة لبوسها — يتعلقون باهداب العروبة يوم عزها ويتخلون عنها في يوم بؤسها ويغمدون خناجر اللؤم في ظهرها في يوم عثرتها ويشتمون بها في يوم محنتها .

ان مستقبل العرب مرهون بنجاح فكرة الجامعة العربية ، ولن تنجح الجامعة الا اذا نظر اليها العرب كخطوة اولى في سبيل التعاون فالاتحاد والوحدة . وهذه لا تمثل عملية واحدة بل سلسلة من العمليات مستمرة . ومن دواعي الغبطة والسرور اننا نحتفل بهذا اليوم ودلائل التبدل في نظرة العرب الى الجامعة من براد لتجميد الاوضاع الراهنة الى ميدان للجهود العملية اخذت تبدو واضحة . وانا لنأمل ان يكون الغاء سمات جوازات السفر بين لبنان والعراق خطوة اولى تعقبها خطوات عملية لتحقيق المصلحة العربية . ولا يسعني ان امر على هذا الحدث التاريخي دون ان اهلل له واشكر الرئيس اللبناني الذي بادر الى توجيه السياسة العربية الى الايجابية واعاد الى لبنان طابعه الخاص وهو السير في طليعة البلدان العربية في حمل لواء النهضة الحديثة على جادة التعاون والاتحاد الى الوحدة منذ اوائل القرن التاسع عشر . وعندي ان الغاء هذه السمات يوازي في اهميته جميع ما قامت به الجامعة العربية طوال سنيها الثمان .

وكما ان هذه المناسبات تتيح لنا ان نلقي نظرة إلى الوراء ثم نستأنف السير إلى الامام كذلك تهيء لنا فرصة لتجديد ولائنا

للفكرة التي تمثلها هذه المناسبة او تلك . فيجدر بنا إذا ان نجدد اليوم ايماننا بالجامعة العربية كخطوة اولى في طريق التعاون والاتحاد والوحدة وان نجدد إيماننا بالعروبة وولاءنا لها كاسلوب من اساليب التطور والنمو وطريق من طرق الحياة تسير دوماً نحو الرشد والرشاد وعقيدة في العلاقات الانسانية متأصلة في قيمة الفرد وكرامته تستوحي فكرة الحرية المتطورة .

وامام العرب اليوم قضايا ملحة اذا لم تعالج بحكمة وحزم وصراحة جلبت عليهم الدمار والفناء . وأمامهم كذلك فرصة فريدة يتوقف على انتهازها المستقبل العربي . وأهم ما في هذه الفرصة انها تمكن العرب من ان يأخذوا بناصية المبادرة بعد ان أفلتت من ايديهم سنين طوالاً . ومن المنتظر ان تجتمع الجامعة العربية قريباً للبت في هذه القضايا الملحة . فهل تقدم على معالجتها بروح ايجابية بناءة تستوحيها من مصلحة العرب وعبر الماضي ومنطق الحوادث أم تكتفي بالخطب والمآدب وتبادل العواطف فيجرفها التاريخ ؟

إن العرب ينتظرون من الجامعة ان تواجه العالم بخطط مدروسة بناءة ومطالب عادلة معقولة يستطيعون ان يقروها وان يقفوا صفاً واحداً في عرضها والدفاع عنها . وان العرب ينتظرون من الجامعة العربية الصراحة التامة ولو كانت مؤلمة . وما النكبات التي ألمت بهم في الماضي القريب إلا نتيجة للتمويه والمواربة . وقد ابتلي العرب بساسة هم أشبه بجانوس ذلك الرجل الاسطوري ذي

الوجهين . وهم لا يجرؤن على مجابهة الشعب بالحقائق بل يخدرونه بانصافها ويخفون عنه الواقع ويعللونه بالمحال .

نقف اليوم على مفترق الطريق إن في الشؤون الداخلية أو في الشؤون الخارجية . وما الانتفاضات التي هزت العالم العربي منذ النكبة الفلسطينية إلا دليل على أن غريزة الشعب ، على الرغم مما ينوء تحته من جهل وفقر ومرض وحيرة وانغلاب، اخذت تدله على ان مستقبله مرهون بالصراحة والايجابية والعمل ، وهو لا يرضى ولن يرضى بغيرها . فحذار فالعبر امامنا عديدة وحديثة ومخيفة .

ولدت الجامعة العربية تلبية لأماني العرب . وكانت ولادتها محفوفة بالرجاء والامل كما كانت محفوفة بالتراجع والفشل . واليوم بعد انقضاء ثماني سنوات على هذه التجربة النبيلة اقول ان نجاح العرب في حل القضايا الملحة التي تعترض سبيلهم يتوقف إلى حد بعيد على نجاح هذه التجربة . يجب على الجامعة العربية ان تنجح كما يجب على كل عربي يريد سلامة بلاده ورفاه اخوانه وسعادة بنيه ان يعمل على نجاحها وذلك بالسعي المتواصل لاقامة الحكم الشعبي الصالح في البلاد ودفع الحكومات العربية الى العمل الجدي السليم في حل القضايا العربية . ان فكرة الجامعة العربية فكرة صحيحة حية تقوى على النمو . وستكون في ايدي المؤمنين بها أداة صالحة لاقامة بنيان عربي قبلته الوحدة لا التفريق، والتقدم لا الجمود .

منذ سبع سنوات دعوت الى ولايات متحدة عربية . واليوم

إذ نحتفل بميلاد الجامعة العربية الثامن أقول ان هذه الجامعة ليست غاية ما يجب ان يبلغه العرب في تطور علاقاتهم بعضهم ببعض ، بل هي الخطوة الاولى في سبيل الولايات المتحدة العربية . وانا لا أزال أحبذ هذه الجامعة لا لما هي بل لما ترمز اليه. اول عمل إيجابي يقوم به العرب انفسهم في سبيل وحدتهم . وكل من سار على الدرب وصل .

٤٦ / ٥ / ٥٣

فهرست

	صفحة
مقدمة	٣
العرب في النصف الثاني من القرن العشرين	٥
الحركات القومية وكره الأجانب في العالم العربي	٢١
اميركا كما تراها شعوب الشرق الأوسط	٣٩
اعادة البناء	٥٦
الجامعة العربية في عامها الثامن	٦٤

مطبعة دار الكتب - بيروت - بناية اللعازارية

٧٢

المجموعة العقائدية

نعرض العقائد والمذاهب السائدة في عالم اليوم

ظهر منها

١ – الاخوان المسلمون	تاليف الدكتور اسحاق موسى الحسيني
٢ – هذه هي الاشتراكية	تاليف جورج بورجان وبيار رامبير
٣ – هذه هي الماركسية	تاليف هنري لوفـــابر
٤ – هذه هي الراسمالية	تاليف فرنسوا بـيرو
٥ – هذه هي القومية	تاليف جينيب وجوهـانيه
٦ – الاسلام في نظر الغرب	ترجمة الدكتور اسحاق موسى الحسيني
٧ – كفاحي (٥) اجزاء	بقـــلم ادولف هتـــلر

تطلب هذه الكتب من

وكيل الدار في عموم افريقيـا السيـد محمد خوجـه – تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيـد محمـود حلمي – بغداد

توزيع شركة فرج الله للمطبوعات – بيروت

الثمن ليره لبنانية او ما يعادلها